الباب الثانى

ملامح الشخصية المصرية

فى الأدبين الفاطمى والأيوبى

* مناظر البيئة الطبيعية .
* صور الحياة السياسية .
* مشاهد البيئة الاجتماعية .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

مناظر البيئة الطبيعية

يمثل أدب الطبيعة المصرية شطراً من شخصيتها فى الأدب العربى ، وأدب الطبيعة المصرية – كما أقدمه هنا – يعبر عن الكيان المادى للبيئة المصرية فى مقابل الكيان البشرى – ، وما يرتبط به ارتباطا مباشراً من نظم سياسية أو ظواهر اجتماعية ، وإن كان الفصل الحاسم بين الكيان المادى والكيان البشرى أمراً متعذراً ، فالإنسان ابن الطبيعة وهو بما منحه الله من قدرات خلاقة يؤثر فيها بشكل من الأشكال . وأدب الكيان المادى لا يقف عند تصوير طبيعة مصر الجغرافية ، بل يمتد إلى مظاهر العمران المختلفة مما سبق وجوده العصرين الفاطمى والأيوبى ، أو ما وجد فى أثنائهما . ومن ثم فإننى سوف أعرض صور هذه البيئة من خلال جوانب ثلاث :

١ – البيئة الجغرافية ٢ – الآثار القديمة . ٣ – المنشآت المستحدثة

البيئة الجغرافية

.للبيئة الجغرافية فى أدب هذه المرحلة مظهران ، كانت فى أحدهما غرضا مستقلا أو غير مستقل ، وفى ثانيهما عنصرا من عناصر البناء الفنى فى الشعر أو النثر ، وسأرجىء الحديث عن المظهر الثانى ، لأننى سأعرضه فى موضع قادم ، وأكتفى هنا بتقديم المشاهد العامة لبيئة مصر الطبيعية من خلال الأدبين الفاطمى والأيوبى .

١ – النيل :

كان النيل ومازال من أهم موضوعات الأدب المصرى ، قلما يخلو منه عمل كاتب أو شاعر سواء من أبنائه الذين نشئوا بين أحضانه ، أو ضيوفه الوافدين من شتى الأقطار وكان النيل موضوعا جغرافياً ، واقتصادياً ، واجتماعياً ، وجمالياً ، والأدب وعاء ذلك أجمع .

وقد أثار فيضان النيل اهتمام الدارسين ، ولكنهم لم يدركوا بوضوح تفسير هذه الظاهرة فى تلك المرحلة التى تتحدث عن أدبها ، وكان بعضهم يرى أن سبب زيادة النيل هبوب ريح يسمى (الملثن) . وفى ذلك يقول الشاعر :

اشفعْ فللشافعِ أعلى يدٍ عندي وأسنى من يدِ المحسنِ
والنِّيلُ نو فَضْلٍ ولكنَّه الشكر في ذلك للملتنِ (١)

وإن لم يدرك رجال تلك العصور - بصورة قاطعة - سر فيضان النيل فإنهم تعودوا فيضانه في وقت معلوم من الحول ، ويروى أبو الصلت عن المصريين أنهم يقولون : « إذا دخل أبيب كان للماء نبيب » وعند ابتدائه في التزايد تتغير جميع كيفياته (لونه أو طعمه أو رائحته) وتفسد فتصير كالحال الذى وصفه بها تميم بن المعز لدين الله الفاطمى :

أمَا ترى الرَّعْدَ بكَى فاشتكَى والبرقُ قد أومَضَ فاستضحكا
فاشربْ على غيمٍ كصبغِ الدُّجى أضحكَ وجهَ الأرضِ لمَّا بكى
وقدْ حكى العودُ أنينَ الهوى لكنَّه جوَّدَ فيما حكى
وانظرْ لماءِ النيلِ في مدِّه كأنَّما صندلٌ أو مسكا (٢)

وعبر أدب هذه المرحلة عن آثار النيل الاقتصادية والاجتماعية ، ففى زيادته الخصب والخير ، وفى نقصانه أو طوفانه الهلاك والتشرد والدمار ، ولذلك كان النيل كما يقول القاضى الفاضل : « مرجوا مخشيا ، فهو يكسو الفضاء ثواباً فضياً ، ويدلى من الأرض ماءه سراجا من النور مضيا ، ويتدافع تياره واقفاً في صدر الجدب بيد الخصب ويرضع أمهات خلجه المزارع فيأتى أبناؤها بالعصف والأب . وقد امتدت أصابعه ، وتكسرت بالموج أضالعه ، ولا يعرف الأن قاطع سواه ، ولا من يرجى ويخاف إلا إياه » (٣)

ووقف الشعراء أمام النيل يرصدون حركاته وسكناته ، مركزين داخل مجراه ومحلقين بأبصارهم فيما يحيط بحوافه ، متحدثين عنه من بعيد ، ومعبرين عن أحاسيسهم وقد توسطوه في الفلك أو الزوارق . فهذا الشاعر « تميم بن المعز لدين الله » يتأمل تراقص الأمواج في النيل : وهى تتمايل بأعطافها كتمايل الراقصات . :

نظرتُ إلى النِّيل في مدِّه بموجٍ يزيدُ ولا ينقصُ
كأنَّ معاطفَ أمواجِه معاطفُ جاريةٍ ترقصُ (٤)

(١) خطط المقريزى ، جـ ، ط دار إحياء العلوم ، بيروت ، ص ١٠٥ .
(٢) الرسالة المصرية ، لأبى الصلت ، تحقيق د عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٨ .
(٣) حسن المحاضرة : السيوطى ، جـ ٢ ، ص ٣٦٣ .
(٤) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى ، تحقيق حسن الأعظمى ، ص ٢٥٥ .

(ويمد ظافر الحداد) بصره إلى جانبى النهر يتأمل الجسر الذى رسمته أمواج النيل ، وقد استمدت تكسرها وتثنيها من الرياح السكرى التى دفعت الأمواج فشكلت مسار الجسر الذى رسمته أمواج النيل ، وقد استمدت تكسرها وتثنيها من الرياح السكرى التى دفعت الأمواج فشكلت مسار الجسر :

والنِّيلُ مثلُ عمامةٍ ... شربٍ محشّاةٍ بأخضرْ
والجسرُ فيها كالطِّرا ... زِ وموجُه رقمٌ مصوَّرْ
تفريكه ما درجته ... ـه له الرِّياحُ من التسكُّرْ (١)

ثم يتابع الشاعر بنظره سريان النيل حتى إذا بلغ مجراه رأس جزيرة الروضة انحنى عن يمينها ويسارها ، فتبدو الجزيرة الخضراء تلوح بمناظرها الجميلة تأخذ الأبصار :

للّهِ يومٌ أنالهُ النيـ ... ـلُ لحسنهِ جملةً وتفصيلُ
فى منظرٍ مشرفٍ على خضرٍ ... كأنّه فى الظلامِ قِنْديلُ
تُبدى لنا جانباً جزيرتُهُ ... أشيا بها للعينِ تأميلُ
ورقمه جسرُه ، وتفريكهُ المو ... جُ وفى نكته للخليج تجميلُ (٢)

ويتأمل « ابن قلاقس السكندرى » منظر النيل وقت الأصيل ويصف لنا ما رآه فى هذه الصورة :

والنِّيلُ تحتَ ثيابِ الأصيلِ ... لُجَيْنٌ توشّجَ بالعسجدِ
يحاكى إذا درجتْه الصَّبا ... برادةَ تبرٍ على مبردِ (٣)

فإذا مر وقت الأصيل ، وقاربت الشمس والغروب ، راح الشاعر يسجل هذه الصورة التى كونها من النيل والشمس والشفق والهلال :

انظرْ إلى الشَّمسْ فوقَ النيل غاربةً ... واعجَبْ لما بعدها من حُمْرة الشَّفَق
غابت وأبدتْ شعاعاً منه يخلُفُها ... كأنّما احترقتْ فى الماءِ بالغرَقِ
والهلالُ وقدْ وافى لينقذها ... فى إثْرها زورق قد صيغَ من ورقِ (٤)

---

(١) حسن المحاضرة ، للسيوطى ، جـ ٢ ، ص ٣٥٨ .
(٢) حسن المحاضرة ، للسيوطى ، جـ ٢ ، ص ٣٥٨ .
(٣) الأدب فى العصر الأيوبى ، د . محمد زغلول سلام ، ص ٣٣٢ .
(٤) الأبيات « لابن قلاقس » ، أنظر فى أدب مصر الفاطمية ، ص ٢٩٧ ، الأدب فى العصر الأيوبى : د . محمد زغلول سلام ، ص ٣٣٢ .

وينقل لنا « أبو الصلت » صورة لتلاطم أمواج النيل على شطآنه وقد هبت ريح الصبا فأهاجت كلاهما على الآخر :

ولله مجرى النِّيل فيها إذا الصَّبا ... أرَتْنا به في سيرها عسكرا مجْرا
فشطٌ يهزُّ السَّمْهريَّةَ ذُبَّلا ... ونهرٌ يهزُّ البيضَ هنديَّةً بُترا
إذْ مدَّ حاكى الورد غصناً ، وإنْ صفا ... حكى ماؤه لوناً ، ولم يعدُه شِبرا (١)

أما « ابن الساعاتي » فقد ركب النهر ووصف السفينة ، وهي تضرب بمجاديفها الأمواج :

ولمَّا توسَّطنا على النِّيل غُدوةً ... ظننتُ وقلتُ اليوْمَ باللَّهو جَذلانُ
عشاريه إنسانا له الماءُ مقلةٌ ... وليس لها إلا المجاديفُ أجفانا (٢)

وإذا كان الساعاتي يظن أنه ملأ يومه باللهو في رحلة نيلية ، فإن تميم بن المعز يشعر بسرعة مرور الوقت في مثل هذه الرحلة ، وكل لذة قصيرة العمر :

يومٌ لنا بالنيِّل مُخْتَصَرٌ ... ولكُلِّ يومٍ مَسرَّةٍ قِصرُ
والسُّفْنُ تصعدُ كالخيولِ بنا ... في موجهِ والماءُ ينْحَدرُ
فكأنَّما أمواجه عكنٌ ... وكأنَّما داراتُه سررُ (٣)

ولكن « الجمال أبا الحسين الجزار » يهزه الخوف من طيران الفلك ويدرك أن الهلاك قريب ، فالفلك تحوم حول المنايا ولا صديق ثمة إلا الماء :

كنتُ في كلةٍ تطيرُ بقلـ ... ـعٍ وهي طوْراً على المنايا تحومُ
أنظرُ الموْجَ حولَها فأخالُ الـ ... ـجيمَ (تا) لخيفتي وهي جيمُ
لم أجدْ لي فيها صديقاً حميماً ... غير انِّي بالماءِ فيها حميمُ
شتَّتوا قلعَها مراراً على الرِّيـ ... ـحِ ولاشكَّ أنَّه مظلومُ (٤)

---

(١) الرسالة المصرية ، « لأبي الصلت » ، ص ١٨ .
(٢) المغرب في حلى المغرب « لابن سعيد » جـ ١ ، ط القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٢٦٨ . والشاعر في هذه الأبيات يصف زورقاً خرج به في النيل ، مشبهاً له بإنسان العين والنيل حوله بالمقلة ، والمجاديف بالرموش .
(٣) ديوان تميم المعز لدين الله ، ص ٢٤١ . « عكن : جمع عكنة وهي ما تطوى وتثنى من لحم البطن سمناً وعياله .
(٤) المغرب في حلى المغرب ، « لابن سعيد » ، جـ ١ ، ص ٣٠٨ .

٢ – البرك :

ومن النيل اندفعت الخلجان ، وتكونت البرك . واخضرت الحدائق والبساتين وأثمرت الزروع ، وأينعت الثمار ، وأنبتت من كل زوج بهيج وتفنن الأدب المصرى فى عرض صور معبرة عن مظاهر الطبيعة المصرية فى هذه المرحلة

فبركة الفيل (١) مستديرة كالبدر ، والمناظر فوقها كالنجوم كما يراها « ابن سعيد المغربى » ويدعونا إلى الاستمتاع معه بمشاهدتها .

انظرْ إلى بركةِ الفيلِ التى اكتنفتْ ... بها المناظرُ كالأهدابِ بالبصَرِ
فكلُّما هى والأبصارُ ترمقُها ... كواكبٌ قد أداروها على القمرِ

ويطيل « ابن سعيد » تأمله فى جمالها وقد قابلتها الشمس بالغدو فيقول :

انظرْ إلى بركةِ الفيلِ التى نحرتْ ... لها الغزالةُ نحراً من مطالعِها
وظلُّ طرفك مجنوناً ببهجتها ... تهيم وجداً وحباً فى بدائعِها (٢)

« وبركة الحبش » تبدو وقت انحسار النيل ثرية المباهج كما صورها أبو الصلت أمية ، وقد زارها فى صحبة من الرفاق :

« فافترشنا من زهرها أحسن بساط ، واستظللنا من دوحها بأوفى رواق ، وطلعت علينا من زجاجات الأقداح شموس فى خلع البدور ، ونجوم فى الصفاء تدور ، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء ، فقال فى ذلك بعضنا :

للّـه يومى ببِرْكـةِ الحبَـشِ (٣) ... والأفقُ بيْـنَ الضِّياءِ والغَبَـشِ
والنِّيل تَحْـتَ الرِّيـاحِ مُضْـطَرِبٌ ... كصـارمٍ فـى يميـنِ مُرْتَعِـشِ
وقـدْ نسجـتْها يـدُ الرَّبـيعِ لنـا ... فنـحنُ مـن نسجِـها على فُـرُشِ

---

(١) ، (٢) بركة الفيل : من منتزهات مصر ، تقع فى أرض الطبالة وكان من عادة سلاطين مصر أن يركبوا إليها بالليل ، وحولها المناظر المسرجة التى تكون منظراً عجيباً انظر : الخطط المقريزية ، جـ ٢ ، ١٨٥ وكتاب القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ ، د . عبد الرحمن زكى ، ص ٩٣ .

(٣) بركة الحبش تقع جنوب مدينة مصر فيما بين النيل وجبل المقطم وكانت تطلق على حوض من الأراضى الزراعية التى يغمرها ماء النيل وقت فيضانه السنوى وكانت تشمل من الأرض مساحة قدرها ١٥٠ فدان ، انظر كتاب القاهرة : تاريخها وآثارها ، من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ ، د . عبد الرحمن زكى ، هامش صفحة ٤ .

ونحن في روضةٍ مفوَّقةٍ ... دُبِّج بالنُّورِ عِطْفُها ووُشِي
فعاطِني الرَّاحَ إنَّ تاركَها ... مِنْ سَوْرَةِ الهمِّ غيرُ مُنْتَعِشِ (١)

ويتأمل الشاعر المصرى « ظافر الحداد » بركة الحبش من خلال وقفته أمام النيل فيراها مقدرة الحدود ، تجمعت فى باطنها المياه . وأحاطت بها الخضرة ، كأنها عمامة احتضنتها الخضرة والتحفت ثوباً مقورا :

تأمَّلتُ نهرَ النِّيلِ طولاً وخلفَه ... من البركةِ الغنَّاءِ شكلٌ مَقدَّرُ
فكانَ وقد لاحتْ بشطَّيهْ خُضْرةٌ ... وكانتْ وفيها الماءُ باقٍ مُوَقَّرُ
عمامةُ شربٍ في جواشنِ خُضْرةٍ ... أُضيفَ إليها طيْلسانٌ مُقَوَّرُ(٢)

وعندما تشرق شمس مصر الساطعة ، وترسل أشعتها على صفحة البركة المفعمة بالماء فإنها تغامزها وتغازلها ، والريح تداعب الموج فى هدوء تارة وفى عنف تارة أخرى وحول البركة الغناء امتدت البسط السندسية :

انْظُرْ إلى البركةِ الغنَّاءِ مفعمةً ... بالماءِ والشمسُ من حسنٍ تُغَامِزُها
والرِّيحُ تلعبُ في أمواجِها جذلا ... فما تُسالِمُها إلا تبارزُها
والنبتُ قدْ حفَّها من كلِّ ناحيةٍ ... بكلِّ غصنٍ أنيقٍ فهو حائزُها
كأنَّها بُسُطٌ بِيضٌ إذا برزتْ ... للعيْنِ مخْضَرَّةٍ منها فراوزُها (٣)

ويطل على بركة الحبش من أحد جوانبها مرتفع من الأرض يثرى بأوصافه أدب الطبيعة المصرية حكى « ابن زولاق » أن أمير مصر « موسى بن عيسى » كان واقفاً بالميدان عند بركة الحبش ، فالتفت يميناً وشمالا وقال لمن معه من الجند : أترون ما أرى؟ قالوا : وما يرى الأمير ؟

---

(١) الأدب فى العصر الأيوبى ، د . محمد زغلول سلام ، ص ٣١٣ ، الرسالة المصرية ، « لأبى الصلت » ص ٢١ ، خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء المغرب الدار التونسية للنشر ، تحقيق « محمد العروسى » ، ص ٢٣٠ .

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ، جـ ٢ ، ص ٣٩٠ .

(٣) ديوان تميم بن المعز لدين الله ، ص ٢٤٢ .

فقال : أرى ميدان أزهار ، وحيطان نخل وبستان شجر ، ومنازل سكنى ، وجبانة أموات ، ونهرا عجاجا وأرض زرع ، ومراعى ماشية ، ومرابط خيل ، وساحل بحر ، وقانص وحش ، وصائد سمك ، وملامح سفينة ، وحادى إبل ، ومقابر ، ورملا وسهلا وجبلا ، فهذه سبعة وعشرين مسيرها فى أقل من ميل واحد (١) ولهذا قال « أبو الصلت » أمية بن عبد العزيز يصف الرصد (٢) الذى بظاهر مصر :

يا نزهةَ الرُّصد المصرِّى قدْ جمعتْ ... من كلِّ شىءٍ حَلاَ فى جانب الوادى
فهذا غديرٌ وذاَ روْضٌ وذا جبلٌ ... فالضبُّ والنونُ والملاَّح والحادى (٣)

٣ - الخليج :

والنيل صانع الخلجان ، والخليج المصرى (٤) نصيب فى أدب الطبيعة المصرية ، اختلف باختلاف أنواق وتعبير الرائين « فالأسعد بن مماتى » يسره سكون الماء فوق الخليج وقد غدا مصقولا كحد السيف ، وفيه السابحات الماهرات تغصن فيه كما تفرق النجوم فى المجرة :

خليجٌ كالحسامِ له صقالُ ... ولكنْ فيه للرائى مَسرَّة
رأيتُ به الملاَحَ تجيدُ عوماً ... كأنَّهمُ نجومٌ فى المجرَّة (٥)

---

(١) حسن المحاضرة ، جـ ٢ ص ٢٣١ .

(٢) الرصد مكان مرتفع يطل من الجهة القبلية على بركة الحبش ، ومن الشرق سهل يتوصل إليه من القرافة ، وكان يقال له قديماً الجرف ، وعرف بالرصد لأن أمير الجيوش بدر الجمالى أقام فوقه كرة لرصد الكواكب ، واشتهر هذا المكان بنقاء هوائه وطيبه . وذكره بعض الشعراء فى قوله :

ياليلة عاش سروري بها ... ومات من يحسدنا بالكمد
وبت بالمعشوق فى المشتهى ... وبات من يرقبنا بالرصد

انظر المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٢٦ .

(٣) نهاية الأرب للنويرى ، جـ ١ ، ص ٣٥٨ .

(٤) هو ذاك النهر الذى يبدأ قبل مدينة مصر ثم يمر بالقاهرة فيصل ما بين شمالى الفسطاط ومدينة هليوبوليس القديمة ، وكان يركب إليه السلطان فى كل عام عندما يبلغ النيل أقصى ارتفاعه ما بين شهرى سبتمبر واكتوبر ، وانظر القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ ، د . عبد الرحمن زكى ، ص ٩٤ .

(٥) خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهانى ، جـ ١ ، ص ١٠١ .

إذا كان « ابن مماتى » ينظر إلى جمال الخليج الذى بهر سروره ، فإن الشاعر « شمس الدين » ينظر إلى ما يسديه الخليج لمصر من كسب وما يقدمه لها من خير عميم .

للّـــهِ درُّ الخلـــيج إنَّ لـــــــه ... لفـــضْلاً لا نـــزال نشـــكُرُهْ

حـــسبُك مـــــنه بـــأنَّ عـــادتَـــه ... يجـبرُ مـــن لا يـــزال يكـــسُره (١)

وقد سار « أبو الصلت » والخليج ، وسجل انطباعاته فى هذه المشاهدة :

« دخلت فى الخليج الذى بين القاهرة ومصر ، ومعظم عمار به فيما يلى القاهرة ، ورأيت فيه العجائب ، وربما وقع فيه القتل بسبب السكر ، وهو ضيق ، عليه من الجهتين بالليل منظرفتان » . ويقدم لنا أبو الصلت نصائحه قائلا :

لا تركـــبَنَّ فـــى خليـــجِ مِصـــرَ ... إلاَّ إذا أسْـــتدلَ الـــــظَّلامْ

فـــقدْ عـــلمتَ الـــذى علـــيه ... مـــن عالـــمٍ كلُّهـــم طِغـــامْ

يـــا سيِّـــدى لا تَسْـــر إلـــيه ... إلاَّ إذا هـــوَّم الظَّـــلامْ

واللَّيْلُ سِـــتْرٌ علـــى التَّصابـــى ... عليـــه مـــن فَضْـــلِهِ لثَـــامْ (٢)

٤ – جزيرة الروضة : (٣)

ولجزيرة الروضة المصرية تاريخ أدبى سجلته أقلام عربية مختلفة على مر العصور فالشاعر الوصاف « ظافر الحداد » يدعونا إلى سماع بدائع وصفه وتشبيهه فيها :

أنظرْ إلـى الرَّوْضـةَ الغـَّراء والنِّـيل ... واسمعْ بدائـعَ تشبيهى وتمثيـلى

وانظر إلى البحْر مجموعاً ومفْتَرقـاً ... هناك أشـبه شـىءٍ بالسَّـراويـلِ

والرِّيـحُ تطـويه أحـياناً وتنشُـرُه ... نسيمُها بيـن تفريـكٍ وتعديـلِ (٤)

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ، جـ ٢ ، ص ٣٦٠ .

(٢) القاهرة ، تاريخها وآثارها من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ ، د . عبد الرحمن زكى ص ٣٤ .

(٣) قال المقريزى : تطلق الروضة فى زماننا على الجزيرة التى بين مصر والجيزة وعرفت فى أول الإسلام بالجزيرة وجزيرة مصر ، عرفت الروضة منذ زمن الأفضل بن بدر الجمالى ٤٩٠ هـ ، وكانت متنزهاً ملكياً وسكناً للناس إلى أن أنشأ بها نجم الدين أيوب سنة ٦٣٧ هـ قلعة الروضة وأسكنها مماليكه ، وهدمها عز الدين أيبك عندما أراد تعمير المدرسة المنصورية ثم عمرها بيبرس وأسكنها مماليكه ، خطط المقريزى .

(٤) حسن المحاضرة للسيوطى ، جـ ٢ ، ص ٣٨٦ .

ويقف « الأسعد بن مماتى » أمام الجزيرة يخاطبها أكثر من مرة ، فطوراً يصف مفاتن جمالها ، ويرجو لها دوام الحياة العامرة باللذات :

جزيـــرة مصـــرٍ لاعدتْـــك مســـرَّةٌ ... ولازالـــتِ اللَّـــذاتُ فـــيك اتصـــالُها
فكَم فيكِ من شمْسٍ على غُصْنِ بانةٍ ... يُميتُ ويُحيِي هجرُهـــا ووصـــالُهـــا
مغانيكِ فوق النيلِ أضحـتْ هوابجـاً ... ومختلفـاتُ الموْجِ فيها جمالهـــا
ومـــنْ أعجـب الأشـياءِ أنـك جنَّـةٌ ... ترِفُّ على أهل الضَّلالِ ظلالُـها (١)

وطوراً آخر يصفها بعلو القدر وسمو المكانة ، ويسجل زيارة السلطان الكامل الأيوبى لها واهتزازها فرحاً بالزائر ، فتمايلت أغصانها ، ورق نسيمها ، وترقرقت مياه جداولها وغردت طيورها :

جزيرة مصر أنتِ أشـرفُ موْضـعٍ ... على الأرْض لما حلَّ فيك محمَّدُ
وفـيكِ عـلا الـبحران لكـن كـفٌّ ذا ... على النَّاس أنْدَى بالعطاءِ وأجودُ
وأصبحتِ الأغصـانُ مـن فـرحٍ بـه ... تَمَـايلُ ، والأطـيارُ فـيك تُغرِّدُ
يـــرِقُّ نـــسيمٌ حيـــنَ ســـارَ وجـــدولٌ ... ويشدو هزَارٌ حينَ يرقصُ أمْلدُ (٢)

ومن بعيد يقف الشاعر « أبو الفتوح بن قادوس الدمياطى » ليطل على الجزيرة فيراها وقد تفرقت منازلها المضيئة كأن النجوم جلت فيها ، وفى كل موضع بها حدقة عين تغازل العاشقين فى مراتع اللهو والغزل :

أرى ســـرحَ الجزيـــرةِ مـــنْ بـــعيدٍ ... كأحداقٍ تُغَـازِلُ فـــى المغـــازِلِ (٣)

وطالما أذهبت الجزيرة أحزان المغتربين ، وأبهجت نفوس الناظرين ، يتحدث عنها أبو الصلت فيقول : وقد تفرجت كثيراً فى طرق هذه الجزيرة ، فقطعت بها عشيات مذهِّبات لا تزال لأحزان الغربة مذْهِبات ، وكنت أبيت بعض الليالى « فى الفسطاط » على ساحلها فيزدهينى ضحك البدر فى وجه النيل ، وركبت مرة فى النيل أيام الزيادة ، وصعدنا إلى جهة الصعيد ، ثم

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ، جـ ٢ ، ص ٣٨٦ .
(٢) المرجع السابق جـ ٢ ، ص ٣٧٦ .
(٣) حسن المحاضرة للسيوطى ، جـ ٢ ، ص ٢٨٤ .

انحدرنا واستقبلنا الجزيرة وأبراجها تتلألأ ، والنيل قد انقسم عنها فقلت :

تأمَّلْ لحسْنِ الصالحيَّةِ إذْ بدتْ ... مناظرها مثل النُّجوم تلالا

وللقلعةِ الغَّراء كالبدْرِ طالعاً ... يفرِّجُ صدرُ الماءِ عنه هلالا

ووافى إليها الماء من بعد غيبةٍ ... كما زارَ مشغوفاً يروم وصالا

وعانقها من فرطِ شوقٍ لحسنها ... فمدَّ يميناً نحوها وشمالا (١)

وكشفت شخصية مصر عن وجه طبيعتها السندسى فى كثرة ما ردده شعراؤها من أوصاف الرياض الزاهية الألوان ، الزاخرة بحركة الحياة ، فالشاعر « ناصر الدين الحسن بن شاور » يصف لنا آثار النسيم على الأغصان والجداول فى إحدى الرياض :

وروضةٍ توسوسَ الغصنُ بها ... لما هزا فيها النَّسيم الشَّمألُ

قدْ جَنَّ فى أرجائها جدولها ... فهو على وجه الثرى مسلسلُ (٢)

و« تميم ابن المعز » يجول بنظره فى روضة خضراء تفتقت فيها أكمام النرجس ، فبرزت ولم تنتظر ، وانتشرت شقائق النعمان تنثر حمرتها فى ربوع الروضة وقد أسفرت عن وجهها تلوح فخورة بجمالها حيناً وتستحى حيناً آخر :

بسطٌ تخالفَ صبغُها ونسيجها ... ما بين أصفرَ كالعقيقِ وأخضرِ

يجمعنَ حسنَ المنظر الزَّاهى الذى ... راقَ العيونَ إلى كريمِ المخبرِ

فكأنَّ نرجسَها عيونٌ أبرزتْ ... أجفانها لكنَّها لم تنظرِ

وشقائقٍ كستِ الرُّبا من نسجها ... حلَّلاً كتضريج الخدودِ الأحمرِ

متبرِّجاتٍ ناعماتٍ أكملتْ ... خفرَ الذَّليل ونخوة المتكبِّرِ

وغلائلٍ زُرْقٍ نُشِرْنَ كأنَّها ... آثارُ تجميش الصدور النُّضرِ (٣)

٥ – البساتين والزهور :

البيئة المصرية غنية بمصادر الحياة ، فماؤها وفير وتربتها خصبة ، فلابد وأن تنتشر

---

(١) المرجع السابق ، ٣٨٥ .

(٢) المغرب فى حل المغرب ، ابن سعيد ، جـ ١ ، ص ٢٥٩ ، جـ ١ ، جامعة فؤاد الأول ١٩٦٣ ، تحقيق د . شوقى ضيف . وهزا : ساد .

(٣) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى ، ص ٢٠١ .

الخضرة فى كل مكان يصل إليه الماء . وأن تكثر الحدائق والبساتين :

لمصـــرَ فضْـــلٌ باهـــرٌ ... لعيشـــها الرَّغْـــدِ النَّضِرْ
فـــى كـــلِّ سفْـــحٍ يلتقـــى ... مـــاءُ الحيـــاةِ والخُـــضَرْ (١)

وقد افتتن الشعراء بوصف البساتين والحدائق والزهور ، فابن سناء الملك ينقل لنا إعجابه ببستان أهداه له والده شبهه بالجنة ، ولو ملكه آدم بعد خروجه منها ، لم يحزن ولم يصبه كمد بل لو طمع الكافر أن ينال مثله يوم القيامة لآمن بالله .

وأخذ ابن سناء يصور لنا مظاهر الجمال فى بستانه ، ففى وسطه نهر جميل يحكى ساعة الأصيل ، ونسيمه رقيق ، والزهر فوق الأشجار قلائد فى جياد مسومات ، وما أروع النغم الشجى ينبعث من طيورها التى تذكرنا بصوت (معبد) المطرب المشهور :

جـــنَّةُ مُلْـــكٍ حيـــن ملكـــتُها ... شككت فـــى أنـــى لـــمْ أُخَلَّـــد
لـــو حلَّـــها آدم مـــن بعدمـــا ... أُخْـــرِجَ لـــم يحـــزَنْ ولـــمْ يكمـــد
أو طمـــع الكـــافـــر فـــى مثلـــها ... فـــى الحشر لم يكْفُرْ ولـــم يجْـــحَد
يحكى أصيل الجَـــوِ فـــى نهرهـــا ... سحـــالـــة العـــسْجدِ فـــى المـــبرد
وزهرهـــا يحـــكى بأشجارهـــا ... قلائـــدَ تعـــلو علـــى خُـــرَّد
فكم عـــلى الأغـــصان مـــن منْـــشد ... بلْ كمْ عـــلى الأغـــصان منْ مَعْبَـــد
لاســـيَّما مُـــذ رُمتـــها مقعداً ... مامثلها فـــى الخـــلد من مقـــعد (٢)

ويجلس الشاعر مرة (ببستان الجليس) وتهيج ذكرياته التى تناساها من قبل ، ولكنه يهيم فى البستان يقبل الطل ويلثم الزهر وكأنه ينال من لمى المحبوب وثغره ، وقد أثار بعمله هذا وجهات نظر الآخرين ما بين عازل وعاذر :

جلستُ ببســـتانِ الجلـــيس ودارِهِ ... فهيَّجَ لـى معـــا تناســـيْتُه ذكـــراً
أقـــبِّلُ ذاك الطَّـــلَّ أحسَـــبُه اللمـــى ... وألثم ذاك الزَّهـــر أحـــسَبُه الثَّغْـــرا
وكمْ لائـــمٍ لى فـــى الـذى قـــد فعلـــته ... وكمْ قائل : دعه لعـلَّ لـه عُـــذراً (٣)

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ، جـ ٢ ، ص ٣٩٢ .
(٢) ، (٣) ابن سناء الملك حياته وشعره ، جـ ١ ، تحقيق محمد إبراهيم نصر ، ص ١٠٦ .

ومن أشجار الزينة المعروفة بمصر شجر الكبر ، وهى شجرة عالية تلفها الأزهار البيضاء التى يشبهها الشاعر المصرى (ظافر الحداد) بمنسوجات البيئة المصرية وهو نوع من القماش عرف بالقباطى ، وفى أطراف هذا الزهر لون حمرة خفيف الاحمرار كأنه بقايا الخضاب :

كبّـــارةٌ لاحَ بهـــا ... زهْـرٌ عجـــيبُ الخَـــلْقِ
كأنّـــه لمّا بـــدا ... فـــى شكْـــلهِ المنـــمَّقِ
بيـــضُ القباطـــىّ أودعـــتْ ... أنصـــافُ قِشْـــرِ القســـتقِ
منـــوطـــةً أجـــوافُـــه ... بشعـــرِ شيـــبٍ يقِـــقِ
كـــأنّ فـــى أطرافـــه ... أثـــرَ خضـــابٍ قـــدْ بقـــى
يشـــبه مـا أثـــاره ... شحْـــطُ النّوى فى مفرقـــى (١)

ويشبه (ظافر الحداد) الأقحوانة بثغر الفاتنة التى تبتسم تيها وخيلاء وقد شابهها فى عدد من الصفات :

والأقحوانة تحـكى ثـــغرَ غانيـــةٍ ... تبسمتْ فيه من عُجْبٍ ومِـن عَـــجَبِ
فى القدّ والبرد والرّيق الشهـــــىّ
وطـيبِ الرّيحِ واللون والتّفليج والشّنَبِ (٢)

ويصف (القاضى الفاضل) زهر (النارنج) قائلا :

نديمىّ هيا قد قضى النّجم نحبَـــه ... وهبّ نسيمٌ ناعمٌ يوقظُ الفجـــرا
وقدْ أزهرَ النّارنـــجُ أزرارَ فـــضّةٍ
تـزرّ على الأشجارِ أوراقهَا الخضرا (٣)

أما البهاء زهير فإنه يحدثنا عن بستانه الذى كانت له فيه ذكريات وّمآرب ، يتلهف عليها بعد فواته فكم مرة خرج إليه مبكرا وكانت السحب قد بكرت إلى البستان أيضاً وأخذت قطرات الماء تنسكب ويعم الكون سكون فيصبح منظراً رائعا . أما الطل فقد فتق أكمام الأزهار فغمرت المكان بطيب الرائحة : وبدت الثمار فى أشجارها بديعة المنظر ، لها فى سحرها فنون :

---

(١) ظافر الحداد ، شاعر مصرى من العصر الفاطمى ، د . حسين نصار ص ١١٥ .
(٢) حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ٤٢٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٣٨ .

لـلّـهِ بستانـي ومَـا قضّـيتُ فيه من المآربْ
لهفـي على زمني به والعيشُ مُخْضَرُّ الجوانبْ
ولكمْ بكرتُ لـه وقدْ بكرتْ لـه أيدى السحائبْ
فيروقُني والجوُّ منه ساكن ، والقطرُ ساكبْ
والطَّلُّ في أغصانه يحكي عقوداً في ترائبْ
وتفتّحتْ أزهارُه فتأرجحتْ من كل جانبْ
وبدا على لوحاته ثمر كأنّ نابَ الثعالبْ
وكأنّما أصالُه ذهبٌ على الأوراقِ ذائبْ
فهناك كمْ ذهبيّةٍ لي في الولوعِ بها مذاهبْ (١)

ونالت الزراعة المصرية حظاً وافرا من تصوير أدبائها وشعرائها فظافر الحداد » يصور القمح فى سنابله :

كأنّ سنابلَ حبِّ الحصيدِ وقد شارفتْ حين إبّانها
كبائسُ مضفورةٌ رُبِّعَتْ وأرْخَى فاضلُ خيطانها (٢)

ويبدع أحد الشعراء المصريين فى تجسيد جمال الطبيعة المصرية من خلال عدة مشاهد جمعت الماء المتدفق والرياض المخضرة والزهر البهيج مختلف الأشكال والألوان :

والعيشُ مخضرُّ الجنابِ أنيقهُ ولأوجُهِ اللذّاتِ فيه بُرودُ
والماءُ يبدو فى الخليج كأنّه أيْمٌ (٣) لسُرعةِ سيرِه محفوزُ
والرَّوض فى حُللِ النَّباتِ كأنّما فُرِشتْ عليه ديابجٌ وخزوزُ
والزَّهر يوهم ناظريه بأنّه ظهرت به فوق الرّياض كنوزُ
فأقاحه ورقٌ وساقطُ ظله درٌّ ونورُ بهارِه إبريزُ (٤)

وكانت « الجزيرة » غنية بمنتزهاتها ، ووفرة ثمارها وتعدد أزهارها ، وقد زارها « تميم ابن المعز لدين الله الفاطمى » . ومن هناك صور لنا تلك المشاهد:

(١) البهاء زهير ، د . عبد الفتاح شلبى ، ص ٩٨ ، شرح ديوان بهاء الدين زهير إبراهيم جزينى ، ١٩ ، ٢٠ .
(٢) ظافر الحداد ، د . حسين نصار ، ص ١٢٤ .
(٣) الإيم : الحية .
(٤) الخريدة للعماد الأصفهانى . جـ ٢ ، ص ١٣ .

يا يومـاً أسعفَـنا بـكلُ سـرورِ طيـباً فنلنـا منـه كـلُ حـبُورِ
فـي جـنةٍ قـد ذُلّلت ثمراتُـها وتسربلـتْ بغلائـلٍ مـن نـورِ
وجرى النَّسيمُ على ثـمار غصونهـا فتضـوَّعتْ بالمسْـكِ والكافـورِ
ينسابُ في الأكنـافِ منـها جَـدْولٌ كالنُّصـل أو كالحـيَّةُ المذعـورِ
مـا بيـنَ أثـرُجٍّ يلـوح كأنَّـه كبـرى الثدى الصفر فوق صـدورِ
وكـأنَّ نرجـسَه إذا استقبـلتهُ يرنـو بأجفـانِ العـيونِ الحـورِ
وكأنَّـما النارنـجُ فـي أغصانِـه أكُـرٌ تـروَّتْ من دمِ اليعفُـورِ(١)
وكأنَّـما نـشر الربيـع ملاحفـاً فيـها مريْشـةً مـن المنـثورِ
وكأنَّ سوْسـنَها خـدودٌ قـد بـدتْ للثـمِ فيها زُرقـةُ التأثـيرِ (٢)

والطبيعة المصرية غنية بأشجارها ونخيلها وطيورها ، فالنخيل سامقة في كبد السماء تدلت من رءوسها الثمار كأنها الجوارى الهيف أتت للرى :

والنخل كالهيفِ الحسان تزيَّنـت فلبسنْ مـن أثمارهـن قلائـدا

فإذا ما ارتوت سكرت من خمره ، وتراقصت أغصانها مغتبطة في نشوتها :

وترقـصُ فـي جوانـبهِ غـصونٌ كرقص الغِيدِمادَ بهـا السُّراب
وتشدو بينـها الأطـيار شـدواً رخيما للقلوب بـه انجـذاب (٣)

ويتحدث الشعر المصرى عن السواقى التى انتشرت فى البيئة الزراعية المصرية ، يقول « البهاء زهير » :

عَـلاَ حـسُّ النواعـيرِ وأصـواتُ الشحـاريـر
وقـدْ طـاب لـنا وقْـتٌ صفـا من غيْـرِ تكـديرِ(٤)

---

(١) اليعفور : ولد البقر الوحشى

(٢) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى ، ٤ ص ٢٥٩ .

(٣) ظافر الحداد ، د. حسين نصار ، ص ٩٧ .

(٤) بهاء زهير ، عبد الفتاح شلبى ، ص ١٠٠ ، شرح ديوان بهاء الدين زهير ص ١١٠ .

٦ – المناخ :

الصفاء والوضوح صفتان نلمسهما من خلال الأدب المصرى فى حديثه عن البيئة المصرية ، فالشمس مشرقة تتخلل الأرائك كثيفة الأغصان فتشبه سيفاً لامعاً فى يد إنسان ترتعش :

والشمس من بين الأرائك قد حكت سيفاً صقيلا فى يد رعشاء (١)

وشمس مصر متوهجة بالضياء غنية بالحرارة فإذا ما انعكست فى وقت الغدو على صفحة الماء بدت وكأنها الجوشن المذهب ، كما يراها الشاعر « وكيع التنيسى » :

غديرٌ يُدرِّجُ أمواجَه هبوبُ الشمال ومرُّ الصبا
إذا الشمسُ من فوقِه أشرقتْ توهمته جَوْشنا مذهبا (٢)

وسماء الليل صافية تتألق فيها النجوم حتى إذا لاحت تباشير الضياء سرى فى جو صاف . يقول « ابن النبيه » :

والليلُ تجرى الدَّرارى فى مجرَّته كالرَّوْض تطفو على نهر أزاهرهْ
وكوكبُ الصُّبحْ نجَّابٌ على يده محلقٌ تملأ الدنيا بشائرُه (٣)

ولما كان النهار حاراً والليل معتدلا صافياً كان لليل سحره الخاص وهذا « ظافر الحداد » يتحدث طويلا عن الليل ويصور نجومه وهلاله ،

كأنَّ نجومَ الليلِ لما تبلَّجتْ توقَّد جمرٌ فى سوادِ رمادِ
حكى فوقَ معتدِّ المجرَّة شكلها قواقعَ تطفو فوقَ لُجَّة وادِ
وقد سبحتْ فيه الثريا كأنَّها بنيقةُ (٤) وشى فى قميص حدادِ
ولاحتْ بنو نعشٍ كتنقيط كاتبٍ بيسراه للتعليم هيئة صادِ
إلى أنْ بدا وجهُ الصَّباح كأنَّه رداءُ عروسٍ فيه صبغٌ جساد (٥)

---

(١) ديوان القاضى الفاضل ، جـ ٢ ، ص ٤٤٠ .
(٢) الرسالة المصرية « لأبى الصلت » ص ٢٢ .
(٣) ديوان « ابن النبيه » ، ص ٩٢ .
(٤) بنيقة : رقعة تزاد فى نحو القميص لتزيينه .
(٥) « ظافر الحداد » شاعر من العصر الفاطمى ، د . حسين نصار : ص ١١٩ .

وعلى الرغم من ذلك ، فالنهار ليس شديد الحرارة في كل الفصول ، بل إن الشمس نفسها تستحب في كثير من الأوقات .

والشمس في مشرقها تجتلى ... في حُلَّل الأشجار في الأحمرِ
كأنَّها نارٌ وقد أُضرِمَتْ ... من خلفِ ستر خلقٍ أخضرِ(١)

ونسيم مصر عليل :

ما مثل مصر في زمان ربيعها ... لصفاء ماءٍ واعتلال نسيم(٢)

ولا يصح النسيم إلا إذا اعتل كما يقول أحد الشعراء :

كلُ يصحُّ إذا تصح حياتُه ... إلا النَّسيمُ يصحُّ ساعةً يمرضُ(٣)

ولكن هذا الجو الصحو قد يتبدل ، ولا سيما في أقصى الشمال ، حيث يسود مناخ البحر المتوسط ، فتتكاثر السحب ، وتدوى الرعود ، وتعصف البروق ، ثم تتشابك هذه القوى الطبيعية في معركة كالتي حدثنا عنها « ابن قلاقس السكندري » في قوله

كأنَّما الرَّعدُ والسَّحابُ وقد ... حَلاَّ سويا والبَرْقُ قد لاحا
ثلاثةٌ من عدوِّهم نفروا ... وقد غدا نحوَهم وقد رَاحا
فسلَّ ذا سيفَه ، وبكى هذا ، وهذا من خيفةٍ صاحا (٤)

٧ – الصحراء :

عاش المصريون حول الضفاف التي كونها النيل واشتغلوا بالزراعة ومشتقاتها ، وقامت حضارتهم وفنونهم وآدابهم على أساس هذه البيئة فلم يحدثنا شعراؤهم أو أدباؤهم عن الصحراء ولم يستوحوها في أعمالهم الأدبية وذلك لأن صحراء مصر خالية من الحياة أو تكاد ، ولم يكن هناك ما يضطر المصري إلى ترك الحياة الهادئة الناعمة على شاطىء نيله ليقاتل الوحوش ويطارد المجرمين ويشقى في الصحارى التي طالما أوحت لغيرهم من الشعراء كثيراً من الموضوعات والصور الأدبية ، وقد نجد في الأدب المصري حديثاً عن الرمل ، وهو – على

---

(١) المرجع السابق

(٢) ، (٣) حسن المحاضرة للسيوطي جـ ٢ ، ص ٣٩٣ ، ٣٩٠ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٠٠ .

الأرجح - لا يعنى موضعا وإنما يشير إلى أن المصريين اتخذوا من رمال الإسكندرية منتدى لسمرهم:

ألا هلْ إلى بـــردِ الأصائلِ بالحِمَـى ... على الرَّملِ فى ظـلِّ الأراك إيـابُ ؟
ليالـــى يُزهِيـنى لنيـذُ حديثِكـــم ... وألفاظُـه مهما استعدْت عِـذابُ (١)

ومسرحاً للهموم:

وفى عنبـــات الرَّمـــل دونَ هرْقـلةٍ ... مسارحُ نـــسعى بينـــها ومراتـــعُ
رياض إذا هبَّ النســـيم خـــلالها ... سعى وهو واهى الخطوفيهنَّ طالعُ » (٢)

الآثار القديمة والعجائب المصرية

تحدثت كتب التراث العربى ، كما تحدث الرحالة العرب والأجانب الذين شاهدوا مصر فى العصور الوسطى عن الأعاجيب التى جذبت أنظارهم وشدت انتباههم فى أرض وادى النيل . وأدلى أدباء هذه المرحلة بدلوهم فيما رأوه ، عاكسين بذلك بعض الأفكار التى سادت مجتمعاتهم حول هذه الأعاجيب .

فالقاضى الفاضل يصف الهرمين بأنهما فرقدا الأرض ، وكلُّ شىء يخشى عليه من الدهر إلا الهرمين ، فإنه يخشى على الدهر منهما (٣)

ويحس « عمارة اليمنى » عظمة البنيان وتفرده فى بديع صنعه الشامخ الذى يتحدى عوادى الزمن ، ويشعر بما يثيره فى نفسه من إعجاب ، ولكنه يقف حائرا متسائلا عن السر الذى يخفيه ذلك البناء الضخم :

خليـلىَّ مـا تحـتَ السَّـماء بنيَّـةٌ ... تماثلُ فى إتقانهـا هرمَـىْ مُصرِ
بناء يخافُ الدَّهـرُ منـــه ، وكلُّ مـــا ... على ظاهر الدنيا يخافُ من الدهـرِ
تنزَّه طرفـــى فـــى بديـــعِ بنائِـها ... ولم يتنزَّه فى المرادِ بها فكـــرى(٤)

---

(١) ، (٢) ظافر الحداد ، د . حسين نصار ص ١٠١ .
(٣) حسن المحاضرة للسيوطى ، جـ ١ : ص ٧٩ .
(٤) حسن المحاضرة للسيوطى . جـ ١ ، ص ٨٠ .

وعمارة ومعاصروه لم يهتدوا بصورة قاطعة إلى حقيقة الأهرام ، وتكاثرت وتضاربت الأقوال حول أسباب بنائها ، فمن قائل إنها هياكل الكواكب ، أو قبور ، أو مستودع أموال أو ملجأ طوفان (١) .

وسجل « ابن الأثير » وصفه للأهرام ارتفاعا وسعة وإعجابا ، فقال : « من عجائب الآثار مالا يضبطها العيان ، فضلا عن الأخبار من ذلك الهرمان اللذان هرم الدهر وهما لا يهرمان ، قد اختص كل منهما بعظم البناء وسعة الفناء ، وبلغ من الارتفاع غاية لا يبلغها الطير عى بعد تحليقه ، ولا يدركها الطرف على مده تحديقه ، فإذا أضرم برأسه قبس ظنه المتأمل نجماً ، إذا استدار عليه قوس السماء كان له سهما (٢) .

وقد طاف « أبو الصلت » فى صحبة من رفاقه حولها وكثر تعجبهم من روعتها وأخذوا يتعاطون القول : فقال بعضهم :

بعيشك هلْ أبصرتَ أعجبَ منظراً ... على طول ما أبصرتَ من هرمَىْ مصرِ
أنافا عِنانا للسماءِ وأشرقا ... على الجوّ إشراقَ السِّماكِ أو النسرِ
وقد وافيا نشزاً من الأرض عالياً ... كأنّهما نهدانِ قاما على صدرِ (٣)

أما « ابن الساعاتى » فقد عدها من أكبر الأعاجيب ، ووصفها بالخلود ، ولم يشأ أن يقف طويلا باحثا عن أسرار صنعها ، أو يعذب نفسه فى التساؤل عنها ، إن كان ثمة من يجيب ، ولكنه راح يتلمس فى وقوفها الشامخ ، عبرة وموعظة ، فقد أحس فى وقتها بالتبلد الذى كونه الأسف على مر السنين وتوالى الأحقاب :

ومن العجائبِ ، والعجائبُ جمّةٌ ... دقتْ على الإكْثارِ والإسهابِ
هرمان قد هرِمَ الزّمانُ وأدبرتْ ... أيّامُه ، وتزيد حسنَ شبابِ
للّه أىُّ بنيّةٍ أزليّةٍ ... تبغى السماءَ بأطولِ الأسبابِ
وكأنّما وقفتْ وقوفَ تَبَلُّدٍ ... أسفا على الأيّام والأحقابِ
كتمتْ على الأسماع فصلَ خطابِها ... وغدتْ تُشيرُ به إلى الألبابِ (٤)

(١) مسالك الأبصار ، لابن فضل الله العمرى ، جـ ١ ، ص ٢٢٥ .
(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ، جـ ١ ، ص ٨٣ .
(٣) أ – الرسالة المصرية لأبى الصلت ، ص ٢٧ . ب – الخريدة ، قسم شعراء المغرب ، ص ٢٣١ .
(٤) حسن المحاضرة ، للسيوطى : جـ ١ : ص ٨١ .

ويبدو أن الشاعر « ظافر الحداد » كان مهتما بالظلال فى تصويره معالم الطبيعة المصرية ، فهو لا يكتفى بتسليط الأضواء على ما يصفه فحسب ، بل ينشر أشعة مصابيحه الكاشفة ليبرز الأبعاد المختلفة المحيطة بما يصفه ، فيصنع من ذلك صورة لها إطار .

فها هو يتأمل الهرمين وبينهما أبو الهول كالرقيب يحول بين المحبين ، ويشترك فى الموقف بعض مظاهر البيئة الطبيعية فالنيل يفيض دموعاً أسفاً لبعد الهرمين العاشقين والريح تصرخ باكية حزناً ، حتى سجن يوسف وقف على البعد كئيباً حزيناً :

تأمَّـــل هيـــئةَ الهرميـــن وانظـــر ... وبينـــــهما أبو الهـــول العـــجيبُ
كعُمَّاريتيْـــــــن علـــى رحيـــلٍ ... لمحبوبـــــــينِ بينـــهما رقيـــبُ
ومـاء الـــــنيل بينـــهما دمـــوعٌ ... وصـــوتُ الرِّيـــحِ عندهـــما نحيـــبُ
ودونهـــما المقـطَّم وهـــو يحـكى ... ركابَ الرُّكبِ أبـــركها اللُّغـــوبُ
وظاهرُ سجنِ يوسـف مـــثلُ صـــبٍّ ... تخلَّف وهـــو محْـزونٌ كئيـــبٌ (١)

ومن أعاجيب مصر التى تحدث عنها أدباء هذه المرحلة « عمود السوارى » (٢) الذى ذكره أحد الشعراء وقد ضاق ذرعا بالإسكندرية ، فوصف أهلها بالبخل :

نزيـــل الإسكـــندرية ليـس يُـقْرى ... سوى بالمـــاءِ أو عُمُـــدِ السَّـــوارى
وإن تطـــلب هنالـــك حـــرفَ خـــبزٍ ... فلم يوجدْ لذاك الحـــرفِ قـــارى(٣)

ولقد أثار عمود السوارى وغيره من الأعمدة القائمة بالإسكندرية إعجاب زوارها ، ولم يدرك عامة الناس أنها بقايا معابد ومدارس يونانية ورومانية ، فدفعهم هذا إلى إحاطتها بالقصص التى تحاول أن تبرر إقامتها ، بل حدا كثيراً من الناس إلى أن يظنوا أنها إرم ذات العماد ، التى ذكرها القرآن فى سورة الفجر . قال ابن جبير الذى زار الإسكندرية فى سنة ٥٧٨ هـ : « وعاينا فيها أيضاً من سوارى الرخام شيئاً كثيراً علواً واتساعاً وحسنا مالا يتخيل

---

(١) بدائع البدائه ، « لابن ظافر » ، ص ١٣٦ ، الرسالة المصرية ، لأبى الصلت هامش ص ٣٧ .

(٢) قال السيوطى : رأيت هذا العمود لما دخلت الإسكندرية ، وقاعدته ثمانية وثمانون شبراً ، ومن المتواتر عن أهل الإسكندرية أن من حاذاه عن قرب وغمض عينيه ثم قصده لا يصيبه بل يميل ، وذكروا أنه لم تحصل إصابته لأحد قط ، وقد جربت ذلك مراراً فلم أقدر أن أصيبه . حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ٧٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٨٨ .

بالوهم ، حتى إنك تلقى فى بعض الممرات سوارى يغص الجو بها صعوداً لا يدرى ما معناها ، ولا لم كان أصل وضعها » .

« وكانت هذه البقاع من أجمل الأماكن بالإسكندرية ، إذ اجتمع فيها البعد عن المدينة وسحر الماضى ، وجمال الحاضر فلا عجب أن تصير موضع نزهة أهل الإسكندرية يخرجون إليها فى مواسمهم ، ويقيمون بها ، ويعقدون مجالس السمر :

سقى اللهُ السُّوارى بالسُّوارى ... ودُرْتُ فى مذاهبِها الذهابُ

فكمْ عيدٍ بها أهدى وأدْنى ... حبيباً كان أبعَده اجتنابُ (١)

وشجرة العباسى التى قال عنها القاضى الفاضل :

« ومن العجائب شجرة العباسى فى دندار من صعيد مصر ، وهى شجرة متوسطة ، وأوراقها قصيرة منبسطة ، فإذا قال الإنسان : يا شجرة العباس جال الناس ، تجتمع أوراقها وتحترق لوقتها » (٢) :

والبرابى المتعددة التى قال عنها « أبو الصلت » إن فيها من الإحكام وجودة الشكل وحسن التصوير ما يدل على أن عمارها ذوو عقول راجحة ، وأنه كانت لهم بالحكمة عناية بالغة لا سيما بصناعة الهندسة والنجوم . وقد عدد من هذه البرابى : بربا أخميم ، وبربا سمنود ، وبربا دندرا (٣)

المنشآت العمرانية

يروى لنا أدب العمران المصرى قصة الحضارة المصرية الإسلامية العربية التى شهدتها مرحلة وضوح الشخصية المصرية فى أدبها العربى فى مختلف الآثار العمرانية بما فيها من إنشاء المدن وإقامة الأسوار ، وتشييد القصور ، ومرافق الحياة العامة وبناء دور العبادة والعلم . فقد اقترن كل عمل من هذه الأعمال بعظيم فى الدولة كان مقصد الشعراء والمادحين فتحدثوا عن أعماله من خلال مديحهم ، وربما اتخذ شانئوه وصف هذه الآثار والحديث عنها تكأة لهجائه

---

(١) ظافر الحداد شاعر من العصر الفاطمى ، د . حسين نصار ، ص ٩٢ .

(٢) حسن المحاضرة ، للسيوطى ، جـ ٢ ، ص ٣٣٩ .

(٣) انظر الرسالة المصرية ، لأبى الصلت ، ص ٢٩ .

كما رأينا موقف الشاعر « ابن داود » مع أحمد بن طولون ومنشآته فى مصر ، وساهم الأدباء الوافدون – الذين استرعى انتباههم ما فى مصر من أبنية مختلفة – فى تسجيل طرف من أخبارهم ووصفوا هذه الآثار فمدينة القاهرة عامرة منذ ولادتها بالمباهج والمسرات ، مكتظة بسكناها مزدحمة بالمارة فى طرقاتها الضيقة :

يقولـــون سافِـــرْ إلـــى القاهـــرة ... وما لى بهـــا راحـــةٌ ظاهـــرة

زحـــامٌ وضـــيق وقـــربٌ ومـــا ... تثيرُ به أرجـــلُ السائـــرة (١)

لكن ضواحيها هادئة جمعت مسرات كثيرة ، ففى ناحية « الطبالة » أرض القرط التى يقول عنها الشاعر :

سقى اللهُ أرضاً كلَّما زرتُ أرضَـــها ... كساها وحلاَّهـــا بزينتِـــه القُـــرْطُ

تجلَّت عروســاً والميـــاهُ عقودُهـــا ... وفى كلِّ قُطرٍ من جوانبِـها قرطُ(٢)

ويطيل أحد أدباء الشام فى وصف مباهج مصر والقاهرة ، فيقول عن البرك المنتشرة فى ضواحى القاهرة : « وكم من عظيم بركة حركها النسيم بلطفه وطيبها عبير عنبرها فضمخها بكفه ... وكم من بط على شط ، وقطقط منقط ، وأين حلاوة عرائس نخلاتها ، وطلاوة أوانس قاماتها بمشابهتها فى صفاتها ، وغرائس فسيلاتها (٣) » .

ويطوف بالضواحى « الشاعر أحمد بن رسم اسفهلار » طوافا سريعاً يحييها قائلا :

حَيِّ الديـــارَ بشاطئـــى مقْيَاسِـــها ... فالمقسَمُ الفيَّاحُ بيْن دِهاسِهـــا

فالروضتين وقـد تضـوَّع عطرُهـــا ... أرج البنفسج فى غضـــارةِ آسِـها

فمنازلُ العيـــن المنـــيفةِ أصبـــحتْ ... يغنى سناها عن ســـنا نبراســـها

فخليجُـــها لذَّاتُـــه مطلوبـــةٌ ... تسمو محاسنُه عـــلا بأناسِـــها

حافاتُـــه محفوفـــةٌ بمـــنازلٍ ... نزلـــتْ بها الآرامُ دون كِناسِـها(٤)

---

(١) القاهرة : تاريخها وآثارها ، من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ ، د . عبد الرحمن زكى وقائل هذين البيتين ابن سعيد المغربى عندما ألح عليه بعض أصدقائه فى الرجوع إلى مصر مرة ثانية .

(٢) خطط المقريزى ، ص ١٨٤ .

(٣) ، (٤) خطط المقريزى ، جـ ٣ ، ص ١٨٩ – ١٦١ .

وقد أحاط بالقاهرة المعزية سور عظيم فتحت فيه الأبواب من بينها باب زويلة [1] الذى يقول فيه الشاعر :

يا صاحِ لو أبصرتَ بابَ زويلةٍ ... لعلمتَ قدرَ محلِّه بُنيانا

بابٌ تأزَّر بالمجرَّةِ وارتَدى ... الشِّعْرى ولاثَ برأسِه كِيوانا

لو أنَّ فرعونا بناه لم يُردْ ... صرحاً ولا أوصى به هامانا [2]

وتكبر القاهرة المعزية ويمتد العمران بها حتى يلتحم بمصر ، ويرى حكامها ضرورة إنشاء سور عظيم يضم البلدين ، وينهض بذلك العمل « بهاء الدين قراقوش » أحد أمواء صلاح الدين ، وينشط فيه على قدم وساق [3] . ويرسل القاضى الفاضل إلى صلاح الدين رسالة يطمئنه على مسيرة العمل قائلا : « والله يحيى الموتى حتى يستدير بالبلدين نطاقه ، ويمتد عليهما رواقه ، فهما عقيلة ما كان معصمهما بغير سوار ، ولا حضرهما ليجلى بلا منطقة نضار [4] .

وللقصور المصرية شرفات تطل منها على الأدب العربى . فالقصر الكبير [5] أبهى مكان فى القاهرة المعزية يتأمله القاضى الفاضل بعد زوال دولة الفاطميين قائلا :

صاحبُ هذا القصرِ كم قُبِّلتْ ... ساحتُه أمسِ وكمْ عُظِّما

وقدرةُ القادرِ فى هدمِه ... أعظمُ منها فى بناء السَّما

وقد حوى القصر قاعات وخزانات منها قاعة الذهب [6] ، وخزانة البنود [7] التى قضى بها الشاعر القاضى المهذب بن الزبير أياما حبيسا ، ومنها أخذ

---

(١) روى المقريزى فى خططه عن ابن عبد الظاهر أن باب زويلة بناه العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله الفاطمى سنة ٤٨٥ هـ ، وتممه أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر . الخطط ، تجـ ٢ ، ص ٢٠٧ (٢) الكامل فى التاريخ « لابن الأثير » جـ ١ ، ص ٤٣٦ . والسلوك للمقريزى ، جـ ١ ، ص ٩٠ .

(٣) حسن المحاضرة ، للسيوطى ، جـ ٢ ص ٣٣٤ .

(٤) القصر الكبير ، أمر ببنائه المعز لدين الله سنة ٣٥٨ هـ ، وفى الجهة الشرقية من القاهرة وفيه سكن الخلفاء الفاطميون ، ثم سكن بيته الأمراء الأيوبيون ، وخرب أولا بأول ،، خطط المقريزى ، جـ ٢ ، ص ٢٠٢ ، .

(٥) ديوان القاضى الفاضل ، جـ ٢ ، ص ٤٠٦ .

(٦) أحاط الفاطميون هذه القاعة بمظاهر الفخامة ففرشوها بالحرير وزينوها بالذهب ووضعوا فى صدرها ستائر على عرش الخليفة المحجوب تستره إذا استوى على العرش والتام المجلس فترفع تلك الستور ، الفاطميون فى مصر ، د . حسن إبراهيم ص ٣٦٩ .

(٧) خزانة البنود ملاصقة للقصر الكبير ، بناها الخليفة الفاطمى لاعزاز دين الله أبو هاشم على بن الحاكم بأمر الله وأصابها حريق سنة ٤٦١ هـ ، ثم تحولت محبساً ، خطط المقريزى ، جـ ٢ ، ص ٢٧٨ ، كنوز الفاطميين فى مصر ، د . زكى محمد حسن ص ٤٥

يرسل اعتذارياته ويبعث رجاءه وشكواه وتضرعه إلى الكامل بن شاور ، واصفاً ظلام المكان وكآبته :

أيا صاحبيْ سجنِ الخزانةِ خلِّيا ... من الصبح ما يبدو سناه لناظري
فواللهِ ما أدري أطرفي ساهرٌ ... على طولِ هذا الليل أم غيرُ ساهرِ
وما ليَ مَنْ أشكو إليه أذاكُما ... سوى ملكُ الدُّنيا شجاعُ بنُ شاورِ

ويضج الشاعر من ظلمة الخزانة ويتساءل : هل سيرى النور مرة أخرى أم أنه افتقده بلا أمل في الرجوع ؟ ، ولكنه يتجلد فلا ييأس من رحمة الله ، ويستعطف ممدوحه :

أيا صاحِبَيْ سجنِ الخزانةِ خلِّيا ... نَسيمَ الصَّبا يُرسلُ إلى كبدي نفْحا
وقُولا لضوءِ الصبح هل أنت عائدٌ ... إلى نظري أم لا أرى بعدَها صُبْحا
ولا تيأسا من رحمةِ اللهِ أن أرى ... سريعاً بفضلِ الكاملِ العُفوَ والصَّفْحا

أما قصر اللؤلؤة [1] فقد تجانبته أطراف الكلمة الموقعة كما تجانبته أيدي السلطة الحاكمة المتغيرة ، فقد كان قصراً للفاطميين ، ثم حل به الأيوبيون وسكنه نجم الدين والد صلاح الدين الأيوبي . فراح أحد شعرائهم يتحدث عن ذلك القصر مادحا الأيوبيين :

يا مالكَ الأرضِ لا أرضى لها طرفا ... منها وما كانَ فيه لم يكنْ طرفا
قد عجَّلَ اللهُ هذي الدار تسكُنُها ... وقد أعدَّ لك الجنَّاتِ والغُرَفا
تشرَّفتْ بك عمَّنْ كان يسكُنُها ... فالبسْ بها العزَّ والبسْ بك الشرَّفا
كانوا بها صدفاً والدُّرُّ لؤلؤةً ... وأنت لؤلؤة صارت لها صدفا

---

(١) قصر اللؤلؤة : أحد مباني الفاطميين ويسمى منظرة اللؤلؤة ، وموقعه على الخليج ويشرف على البستان الكافوري من الشرق ، ويطل على الخليج والبساتين التي على نهر النيل ، من الغرب ، وقد بناه المعز لدين الله ولما ولي برجوان الصقلي الوزارة سنة ٣٩٦ هـ سكن فيه إلى أن قتل . وفي سنة ٤٠٢ هـ أمر الحاكم بهدمه ونهبه وبيع ما فيه ، ثم أعيد بناؤه فيما بعد . وقد أقام بهذا القصر والد صلاح الدين بعد وفاة العاضد لدين آخر الفاطميين سنة ١١٧٠ م ، وعندما سكنه نجم الدين وقف الشاعر الأحنف بن أبي حصينة يتحدث عن هذا القصر ومن سكنوه .
انظر القاهرة ، تاريخها وآثارها ، من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ ، د . عبد الرحمن زكي ، ص ٣٦ ، كتاب السلوك ، للمقريزي ، جـ ١ ، ص ١٤٢ .

ولم يرضَ عمارة اليمنى عن موقف هذا الشاعر ، فانبرى للرد عليه متخذا من القصور محور حديثه ، وبث أفكاره والتعبير عن موقفه:

أثمتَ يا مَنْ هجا السادات والخُلَفا ... وقلتَ ما قلتَه في ثلْبِهم سَخَفَا
جعلتهم صدفاً حلوا بلؤلؤة ... والعُرْفُ ما زال سُكْنى اللؤلؤِ الصدفا
وإنما هي دارٌ حلَّ جوهرهم ... فيها وشفَّ فأسْناها الذي وصفا
فقال لؤلؤة عجباً ببهجتها ... وكونها حوتِ الأشرافَ والشرفا
فهي بسكَّانها الآياتِ إذْ سكنوا ... فيها ومن قبلِها قد أُسكِنُوا الصُّحفا
والجوهرُ الفردُ نورٌ ليس يعرِفَه ... من البريَّة إلا كلُّ من عرفا
فالكلبُ يا كلبُ أسنى منك معرفةً ... لأنَّ فيه حفاظاً دائماً ووفا (١)

وتفتح لنا صور الأدب المصرى أبواب ودهاليز هذه القصور لنرى فيها حدائق وعمد وتماثيل وبسط . قال « أبو الصلت » أمية الأندلسى « يصف قصراً بناه على بن تميم بن المعز بمصر :

لله مجلسُك المَنيفُ قبابُه ... بموطَّدٍ فوقَ السِّماكِ مؤسَّسِ
مُوفٍ على حُبُكِ المجرَّةِ تلتقي ... فيه الجوارى بالجوارى الخنَّسِ
تتقابل الأنوارُ في جنباتِه ... فالليل فيه كالنَّهارِ المشمسِ
عطفتْ حناياه نُوَيْن سمائِه ... عطفَ الأهلَّةِ والحواجبِ والقسى
واستشرفتْ عمدُ الرُّخام وطوهرتْ ... بأجلَّ من زهْرِ الرَّبيعِ وأنفَس
فهواؤه من كلِّ قدٍّ أهيفٍ ... وقرارُه من كلِّ خدٍ أملسِ
فلكٌ تحيَّر فيه كلُّ مُنَجِّمٍ ... وأقرَّ بالتَّقصير كلُّ مهندسِ
فبدا لحظِ العينِ أحسنَ منظراً ... وغدا لطيب العيش خيرَ معرسِ (٢)

---

(١) ديوان عمارة اليمنى ، ص ٢٩٣ .

(٢) الخريدة ، قسم شعراء المغرب ، ص ٢٤٧ ، مقدمة ديوان تميم المعز لدين الله الفاطمى ص ٣٢ . وانظر نموذجاً آخر فى نهاية الأرب للنويرى ، جـ ١ ، ص ٤٠٧ ، ٤١١ .

ويحدثنا عمارة اليمنى عما كان فى دار أحد الأمراء من رخام وحدائق وفسيلات :

فمن الرُّخام مسيَّراً ومسهماً ... ومنمنما ومُدَرْهما ومدنَّراً

فيها حدائقُ لم تحدْها ديمةٌ ... أبداً ولا نبتتْ على وجهِ الثرى

وبها زرافاتٌ كأنَّ رقابها ... فى الطولِ ألوية تؤم العسكرا

نوبيةُ المنشى تُريك من المها ... روقا ومن بزْلِ المهارى مشفراً

جُبلتْ على الإقعاء من إعجابها ... فتخالها للتَّيهِ تمشى القهقرى (١)

ومن ملامح بيئة مصر الطبيعة التى تناولها الأدب فى هذه المرحلة وصف مدارسها ومدنها . فعندما أنشئت المدرسة الصالحية راح أبو الحسين الجزار يهنىء الملك الصالح نجم الدين أيوب قائلا :

ألا هكذا يبنى المدارس من بنى ... ومن يتغالى فى الثواب وفى البنا (٢)

وقد دفن نجم الدين أيوب بمدرسته بالجناح الذى كان مخصصاً لتدريس الفقه المالكى فرثاه أحد الشعراء قائلا :

بنيتَ لأربابِ العلوم مدارسا ... لتنجوَ بها من هول يوم المهالكِ

وضاقتْ عليك الأرضُ لم تلقَ منزلا ... تحلُّ به إلا إلى جنْبِ مَالكِ(٣)

وفى عصره تعرض المشهد الحسينى لحريق ولم يكن الصالح نجم الدين حاضراً فخرج نائبه الأمير جمال الدين بن يعمور ليشرف على إطفاء الحريق بنفسه . فقال أحد الشعراء :

قالوا تعصَّب للحسَيْن ولم يزَلْ ... بالنفس للهول المخوَّفِ مُعرِّضا

حتى انضوى ضوء الحريق وأصبح ... المسودُّ من تلك المخاوف أبيضا

أرضى الإلهَ بما أتى فكأنَّه ... بين الأنام بفعله موسى الرضى(٤)

---

(١) ديوان عمارة ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) ، (٣) حسن المحاضرة للسيوطى ، ٢ ص ٢٦٣ .

(٤) خطط المقريزى ، ٢ ، ص ٢٨ . قال ابن عبد الظاهر أن طلائع بن رزيك قصد نقل الرأس للشريف « رأس الحسين من عسقلان عندما خاف عليها من الفرنجة ، وبنى جامعة خارج باب زويلة ليدفنه به ويفوز بهذا الفخار ، فغلبه أهل القصر على ذلك وقالوا : لا يكون إلا عندنا ، فعمدوا إلى هذا المكان ، وبنوه له ونقلوا الرخام إليه وذلك فى خلافة الفائز على يد طلائع سنة ٥٤٠ هـ خطط المقريزى جـ ٣ ص ٢٨٤ .

وقد أسس أحد ولاة مدينة قوص مدرسة للحديث [1] ، وحبس لها وقفا معلوما تحدث عنها الشيخ « أحمد بن هبة الله بن موسى الشافعي » في إحدى خطبه فقال : « الحمد لله أسعد جد من جد في إحياء سننه ، وأصعد من كان سابقا في مضمرات التقرب إليه مستنافي سننه .. » أما بعد فإن الأبنية كمائم تتفتح عن زهرها ، وغمائم تتوضح عن مطرها ، وأصداف تفتخر بدورها ، وضمائر تسفر البصائر والأبصار عن مضمرها ، ونواطق بحسن الآثار وإن كانت صوامت ، ومهارق تسطُّر فيها أخبار أهلها المنفصلة وإن كانت ثوابت ، وأجلها وأحلاها ذكراً ، وأسماها وأسناها قدراً وأوْلاها وأوْلاها مسرى ، وأنفحها وأفيحها طيبا ونشراً ، وأربحها وأرحبها فناء وأفسحها وأفصحها ثناء ، دارٌ دارَ فضل حديثها وحديث فضلها ، وسار بفخرها وعزها المثل السائر حتى عز وجود مثلها وشاكلت مهابط وحي الله المحجوبة بأهل شرفها وشرف أهلها ، فأسست على تقوى من الله ورضوان فجانبتها الشوائب ، وعدتها ، ونثرت في وكيرتها جواهر الكتاب والسنة فجلّتْهَا لما حلّتْهَا وكستها العزائم السابقة والهمم الشائقة حلل المحاسن والحسنات وما وكستها ، فأصبحت بحمد الله كعبة تنتابها وفود الاستفادة زيادة وعكوفا ، وجنة تبعد عن أعين المتأملين شأوا وتدنو من أفواه المؤملين قطوفا ، وفلكا بما جللته من الأنوار الزواهر ، وتاجا بما كللته من جواهر النفائس ونفائس الجواهر ، ومعلما للعلم قضت السعادة من الأزل ببنائه ، وعلما تتزين به الطلبة جادت به يد الدهر على أبنائه ، ألا وهي (هذه) المدرسة الشريفة موقعها ، الشريقة مطالعها ، الكريمة منازعها ، العميمة منافعها » [2]

وانطلق أدباء الطبيعة المصرية يتجولون في مختلف أرجائها ، ناقلين مشاهد من أقصى الشمال وأخرى من أقصى الجنوب .

« فالشاعر أبو الحسين الجزار » يصور لنا الإسكندرية بموقعها وآثارها وقصورها وأسوارها وما يعكسه في نفوسنا جمالها الساحر البديع :

---

(١) هي المدرسة التي أنشأها سابق الدين والي قوص ، وجعل عليها الشيخ الإمام أبا الفتح محمد بن علي القشيري ، المتوفى حوالي سنة ٧٢٠ هـ : انظر الطالع السعيد للأدفوي ص ٦٢٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٩ : ١٤٠ .

أرى الإسكندريـــةَ ذاتَ حُـــسنٍ بديـــعٍ مـــا عَلَـــيْه مـــن مزيـــدِ
هى الثغرُ الـــذى يبـــدى ابتسامـــاً لتقبـــيل العُـــفاة مـــن الوفـــودِ
وكـــم قصريـــها أضـــحى كحصنٍ منيـــع لا كـــزرب مـــن جريـــدِ
يـــرصُّ فصوصَـــه بانيـــه رصًّـــا يفصِّـــلُه علـــى نظْـــمِ العـــقودِ
لهـــا سُـــورٌ إذا لاقـــى الأعـــادى يقابلهـــم بوجـــهٍ مـــن حديـــدِ
أحـــاط بسورِهـــا بحـــرٌ أُجـــاجٌ ومنهلُ أهلِهـــا عـــذبٌ الـــورود (١)

وقديماً أقام الشاعر العربى الكبير « دعبل الخزاعى » فى مدينة أسوان واليا من قبل المطلب الخزاعى سنة ١٩٨ هـ ، وقال فيها :

وإنَّ إمرءاً أمـــستْ مســـاقط رأســـه بأسوان لم يترك له الحـــزم معلعـــا
حللتُ محلاً يقـــصِّر الطـــرف دونـــه ويعجز عنه الطَّيف أن يتجسَّـــما (٢)

ويفصل أحد شعراء الصعيد ملامح هذا الجمال الذى قصر طرف « دعبل » عن وصفه فيقول :

أســـوانُ فى الأرضِ نصـــفُ دائـــرةٍ الخيرُ فيـــها والشَّـــرُقدْ جُمِـــعا
فـــى جـــبلِ الفَتْـــحِ منـــعةٌ وعـــلا لمن بأعـــلاه فى الدُّجـــا خضـــعا
ونـــزَّه الطـــرف فـــى جنادلِهـــا ففيـــه ســـر لمـــن رأى ووَعـــى
هديرهـــا يُذْهِـــبُ الســـقام ومـــا بهـــا مـــن المـــاء يرفـــع الوجعـــا
وحـــــسنُها لا أراك مبدعـــــه يـــروق الأبدان حيثُ مالمـــــعا (٣)

وقضى « ابن الساعاتى » فترة فى مدينة أسيوط وأعجب بصفاء جوها وجمال طبيعتها فوصفها بقوله :

للَّهِ يـــومٌ فـــى سَـــيوط وليـــلةٍ صرفُ الزَّمـــانِ بمـــثلِها لا يغلَـــطُ
بتـــنا وعمـــرُ اللَّـــيل فى غلوائِـــه ولـــه بنورِ البـــدْرِ فـــرعٌ أشـــمطُ

(١) المغرب فى حلى المغرب ، لابن سعيد المراكشى ، جـ ١ ، ص ٣١٣ .
(٢) الولاة والقضاة للكندى ، ص ١٥٢ .
(٣) الطالع السعيد ، للأدفوى ، ص ٣٣ .

والظلُّ فى تلك الغصـــون كلـؤلـؤٍ نظمٌ يصافحُه النَّســـيمُ فيسقُـطُ

والطيرُ يـــقرأ والغديـــرُ صحيـفةٌ والرِّيحُ تكتبُ والغمامةُ تنقـــطُ (١)

ويستطيع دارس الأدب المصرى فى العصرين الفاطمى والأيوبى أن يجمع قائمة واضحة لأسماء المدن المصرية المعروفة فى تلك العصور ، حيث رددها الشعراء والكتاب فى عديد من المناسبات .

وقد سجل كثير من الشعراء والأدباء الذين زاروا مصر فى هذه الفترة بعض أسماء المدن ، ولا سيما التى مروا بها أو أقاموا فيها ، وفى آثار أبى أمية بن عبد العزيز وابن سعيد المغربى ، وعمارة اليمنى ، والعماد الأصفهانى نماذج كثيرة لهذه الظاهرة .

(١) الطالع السعيد ، للأدفوى ، هامش ٦٩ .

obeikandl.com

الفصل الثانى

صور الحياة السياسية

يتميز أدب السياسة المصرى فى العصرين الفاطمى والأيوبى بثرائه كما وكيفا، وصدقه فى التعبير عن شخصية مصر السياسية، فقد سجل بدقة وتفصيل كثيرا من الأحداث السياسية على الصعيدين الخارجى والداخلى، واستمد ثراءه وغذاءه من عناصر حيوية متعددة، فهذه المرحلة عامرة بالأحداث الضخام، ولأدبائها دور فى التاريخ زاخر بالحركة والحياة، فقد كان منهم الوزراء وأصفياء الحكام، ومن ثم أتيح لهم أن يشاهدوا كل مايدور على مسرح الحياة من حولهم ويسجلوه فى أدبهم. فجاء أدبا خصبا فى دلالته على الشخصية المصرية بحيث يمكننا أن نرى من خلاله قصص الصراع الداخلى فى ساحات القصور وبين دهاليزها والمعارك الخارجية فى ميادين القتال المتفرقة فى الصحارى أو المدن أو السواحل.

وتتعدد الجبهات الخارجية التى واجهتها مصر فى هذه الآونة فقد أدى اتساع سلطانها فى مستهل الحكم الفاطمى إلى إثارة الأحقاد ضدها وزاد من حدته أن حكامها رفعوا شعار الشيعة ينتقصون به أطراف الممتلكات السنية التابعة للخلفاء العباسيين وأتباعهم السنيين، ومع ذلك فقد كانت شخصية مصر العسكرية قادرة على ردع هذا التجمع يوم أن كان خلفاؤها الفاطميون أقوياء ولكن اتساع الأطراف أصبح عبئاً ثقيلا على كاهل مصر، بعد أن ضعفت قوة الخلفاء الفاطميين وسقطت هيبتهم فى أعين الوزراء المتصارعين فتطاول عليها الأعداء وراحوا ينتقصون من أطرافها، فبعد أن كون الصليبيون إمارتهم الأولى فى "أنطاكية" اتجهوا صوب القدس وانتزعوه من سلطان مصر وتستشعر دولة الزنكيين الفتية فى الشام مصاب مصر، وتدرك أهمية موقعها وثراء موضعها وتخشى أن يسيل عليها لعاب الصليبيين ويمتلكوها فتستقر أقدامهم فى المنطقة بأسرها. وتتاح « لنور الدين » فرصة التدخل فى شئون مصر الداخلية بلجوء "شاور" إليه ليساعده فى الوصول إلى الوزارة.

وعندما انتهت هذه المهزلة وجمع صلاح الدين وحدتها الداخلية كان الخطر الخارجى قد استفحل أمره فأخذت مصر تواجه ذلك الخطر حتى كسرت حدته وأنهكت قوته على يد صلاح

الدين، وفى الوقت نفسه واجهت مصر الصلاحية مؤامرات داخلية وثورات متفرقة فى القاهرة والصعيد كفتنة "مؤتمن الخلافة" وواقعة السودان ومؤامرة عمارة ورفاقه، لكنها فتن ومؤامرات هينة أمام القوة التى تتمتع بها الحكومة المصرية آن ذاك وبعد انحسار هذه الموجة من الفتن الداخلية استطاعت مصر أن تكسر حدة الصراع الخارجى.

وقد مهد لكثير من الأحداث وتنبأ بوقوعها وشارك فى صنعها أدب هذه المرحلة وعلى هذا يمكن تحديد مسرح الأدب السياسى فى مصر خلال هذه الفترة فى المجالين الخارجى والداخلى بالأبعاد التالية :

١- الصراع الوزارى .

٢- الاحتكاك المذهبى (بين الشيعة والسنة).

٣- العدوان الصليبى.

obeikandl.com

الصراع الوزارى

تعرضت مصر لأزمة اقتصادية حادة أخذت تتصاعد عاما بعد عام حتى أكل الإنسان لحم أخيه حيا، فلا غرو أن تعم الفوضى، وأن تستشرى الفتن والاضطرابات الداخلية التى بلغت أوج حدتها سنة ٤٦٤ هـ (١). وقد وصفها "ابن منجب الصير فى" بقوله : "أما العزائم فقد وهت، وأسباب الفساد قد بلغت الغاية وانتهت، والمراقبة قد نزرت وقلت، والمهابة قد تلاشت واضمحلت"(٢).

ولم يجد الخليفة المستنصر بداً من الاستعانة بوزير حازم يقبض على زمام الأمور، ويدير حركة الحكم فاستقدم من الشام "بدر الجمالى" الذى أخذ الناس بالقسوة والعنف، ودانت له مقاليد الحكم، وأصبح للوزارة فى عصره سلطة وهيبة جعلها أمل الطامحين، من ثم بدأ الصراع حولها وبدأ أبطال هذه المسرحيات يهاجمون الوزير فنجح بعضهم وتولى مكانه، وأخفق آخرون ولقوا حتفهم. وقد مثل دور البطولة -فى الغالب - جماعة من الذين شاركوا فى إدارة بعض الولايات أو المناصب فى مصر، فإذا ماسنحت الفرصة لأحدهم انقض بجنوده على الوزير واحتل منصبه." وكانت عادة المصريين (الخلفاء الفاطميين) إذا غلب شخصٌ صاحبَ المنصب وعجز صاحبُ المنصبِ عن دفعه وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه، فإن قوتهم إنما كانت تكون بعسكر وزيرهم وهو الملقب عندهم بالسلطان، وماكانوا يرون المكاشفة، وأغراضهم مستتبة وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال (٣).

بين الوزيرين : عباس وابن السلار :

الصراع حول الحكم جبلة إنسانية لكنه بدا مرضا سياسيا ينهش فى كيان مصر منذ استبد "أبو الفضل عباس بن أبى الفتوح" بالوزارة وقتل الوزير السابق "ابن سلار" وكان

(١) راجع الأزمة المستنصرية فى :
أ - الكامل لابن الأثير .
ب - حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، د . راشد البراوى : طبعة أولى سنة ١٩٤٨ ، ص ٨١٨ وما بعدها .
(٢) الإشارة إلى من نال الوزارى ، أبو القاسم على بن منجب الصيرفى : ص ، ٥٠ .
(٣) كتاب الروضتين ، لأبى شامة . جزء ١ ص ٣٣١ .

"عباس" من رجاله، لكنه تآمر عليه وقتله عند مدينة "بلبيس" ثم عاد عباس ليمثل دور الأتراك السلاجقة مع الخلفاء العباسيين فى قتلهم وسحلهم، واتخذ مسرحه القصر الفاطمى بالقاهرة فدبر مقتل الخليفة الظافر خارج القصر سنة ٥٤٩ هـ. ثم قتل أخويه يوسف وجبريل بتهمة إخفائهما الخليفة وقتله، وجعل على كرسى الخلافة طفلا من أبناء الظافر (١).

وكانت عيون الأدب ترصد هذه الحركات وتستنكرها "فابن أبى أسعد" يفضح صنع عباس قائلا :

وأنفقَ مـن أنعامِهم فـى هلاكِـهم ... وأظهرَ مـا قـدْ كان عنـه يُنَافِـقُ
ومـدَّ يـداً هـم طوَّلوهـا إليـهم ... وحلت بأهلِ القصرِ منـه البوائـقُ
سقى ربُّه كأسَ المنايا، وما انقضـى ... لـه الشهرُ إلا وهو للكـأسِ ذائقُ (٢)

عباس وطلائع بن رزيك :

ويتألم الشعراء لهذا الحدث أسفا يذهب النوم عن العيون لما حل فى ساحات القصر :

فلو عاينت عيناك بالقصرِ يومَـهم ... ومصرَعَهُم لم تكتـحل برقـاد (٣)

ولا يكفى الألم والأسف بل لابد من المشاركة فى صنع الأحداث وتشكيلها، فيتجه الشعر إلى مخاطبة من يتوسم فيهم المقدرة على الأخذ بالثأر.

وكانت أسرة "بنى رزيك" وعلى رأسها الصالح طلائع قادرة على الانتقام، فخاطبها الشعراء وصوروا لها فداحة الأمر وحثوها على الثأر من عباس وتخليص البلاد من قسوته.

فأين بنو رزيـك عنـها ونصرُهـم ... وما لـهم مـن منـعه وذيـادِ
فمزِّقْ جموعَ المارقـين، فإنَّهـا ... بقايـا زروعٍ آذنـت بحصـادِ (٤)

---

(١) الفاطميون فى مصر ، د . حسن إبراهيم حسن ، ص ٢٩٦ .

(٢) كتاب الروضتين ، جزء ١ : ص ٢٤٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٦١ والبيت من قصيدة طويلة بعث بها القاضى الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الحباب إلى الصالح طلائع بن رزيك ، وكان الصالح والياً على قوص وما جاورها من بلاد الصعيد الأعلى . انظر النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة لابن تغرى بردى ، جـ ٦ ص ٢٩١ .

(٤) الروضتين ، جـ ١ ، ص ٣٦١ .

وينتصر الشعر فى تحقيق أمانيه ويستجيب "طلائع" لندائه ويهاجم عباسا فيفر من وجهه ضاربا فى صحراء سيناء حيث تتلقاه منيته، وكان "الشريف القاضى سناء الملك أبو البركات" والد الشاعر "هبة الله بن سناء الملك" معاصرا تلك الأحداث وقدم لنا صورة لفرار عباس وقتله . فقال مخاطبا "ابن رزيك" :

لئن كنتَ قد نجَّيت عباس من ظبا ... فرُنجةٍ لمَّا لم يجُد عنك مستعفى

وأنقذته من أسرِه وهو ذاهلٌ ... يردُّ عن الأهوالِ فى المأزقِ الطرفا

فقدْ سقتَه إذ فرَّ منك إلى مدى ... تعدُّ مداه نحو مقلته الحتفا

وما فرَّ من وقع الأسنةِ صاغرا ... وحدك إلا حَين لم يَرَ مستخفى

ومِلءُ الطَّعانَ المرُّ للملكِ الذى ... يراه حيا عندما يهب الألفا (١)

ويتولى "طلائع بن رزيك" الوزارة المصرية، ويتهلل وجه الشعر ويرى الجليس الصالح أن وزارة عباس كانت نجسة، وكانت رداء مستعارا . ولابد أن ترد العارية يوما من الأيام وأن الوزارة فى يديه كامرأة حسناء مع رجل غير كفء، فلابد أن يشير عليه ذوو الرأى والمشورة بطلاقها .

أعدَت إلى جسْمِ الوزارةِ رُوحَها ... وما كان يُرجَى بعثُها ونشورُها

أقامتْ زماناً عندَ غيرِك طامثا ... فهذا الأوانُ قُرْؤُها وطهورها

من العدلِ أن يحيا بها مستحقُّها ... ويخلعُها مردودة مستعيرُها

إذا ملّك الحسناءَ مَن ليسَ كُفئَها ... أشارَ عليهِ بالطلاقِ مشيرُها(٢)

ونجح "ابن رزيك" واستطاع بقوة السيف أن يقهر عباس فى أوج جبروته وطغيانه :

لكُم بنى رزيك، لازال ظلُّكم ... مواطنُ، سكبُ الموتِ فيها مواطرُ

سللتم على عباس بيضَ صوارمٍ ... قهرتُم بها سلطانَه وهو قاهرُ (٣)

---

(١) الخريدة ، جـ ١ ، ص ١١٩ .

(٢) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٣٦٢ .

(٣) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٢٤٤ .

وقد واجه الصالح أطماع الخارجين وصدهم عن بلوغ غايتهم، ففى الاسكندرية ثار (طرخان) وتقدم بجيوشه فأرسل الصالح لقتاله غلامه "وردا" وأخاه "شمس الخلافة" والتقيا بطرخان عند مدينة البحيرة فبددا شمله وفرقا جيشه مابين قتيل وأسير :

لقد طمحتْ بطرخان أمانٍ ... لهُ ولمثلِهِ فيها بَوَارُ

وحاول خطةً فيها شماسٌ ... على أمثالِه وبها نفارُ

هل الحسبُ الغنىُّ بمستقلٍّ ... إذا ما غرَّه الحسبُ النضارُ

أتتك بخائنٍ قدماه سعياً ... كما يسعى إلى الأسدِ الحمارُ

وشانَ قرينَه لما أتاه ... كما قدْ شان أسرته قدارُ (١)

وكما فشل طرخان فى ثورته على بنى رزيك فشل بهرام الغزى، فقد ثار بهرام وتوجه يريد الصعيد، فأدركه العسكر، وقتل أخوه وجماعة من الغز.

وقد وصف عمارة هذه الحادثة وصور انتصار بنى رزيك على بهرام وقومه :

لما تمرَّد بهرامُ وأسرتُه ... جهلاً وراموا قِراعَ النبعِ بالقربِ

صدعتْ بالناصرِ المحيى زجاجتَهم ... والزجاجةِ صدعٌ غير منشعبِ

أسرى إليهم ولو أسرى إلى الفلك الأعلى ... لخافت قلوبُ الأنجمِ الشُّهبِ

فى ليلةٍ قدحتْ زُنْدُ النِّصال بِها ... ناراً تشبُّ بأطرافِ القنا الأشبِ

ظنوا الشجاعةَ تنجيهم فقارعهم ... أبو شجاعٍ قريعُ المجدِ والحسبِ (٢)

مقتل "الصالح طلائع بن رزيك" وتولية ابنه الوزارة :

وتدور الدائرة على الصالح كما دارت على غيره من وزراء العصر ولم يمنعه من ذلك مصاهرة الخليفة العاضد، بل كانت هذه المصاهرة مثار حقد نساء القصر، وتولت عمة العاضد (٣) تدبير المؤامرات ضد الوزير طلائع حتى تتخلص من نفوذه فأحكمت حيلتها ودفعت

(١) الخريدة ، جـ ١ ، ص ١٩٢ .
(٢) ديوان عمارة اليمنى ، ص ١٦٥ .
(٣) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ، جـ ١١ ، ص ٣٧٤

الأموال لجماعة من السودان، قاموا بتنفيذ الخطة. فبينما الصالح يغادر القصرفى التاسع عشر من رمضان سنة ٥٥٦ هـ بعد اجتماعه بالخليفة فوجيء بجماعة تخرج عليه من مخابئها فى دهليز القصر وتعاورته سيوفها فتعثر فى أذياله وضربه أحدهم بالسيف فى رقبته ضربة مؤثرة توفى على إثرها بعد ساعات (١).

وقد روى عمارة اليمنى مشهدا من هذه الوقائع فى حديثه عن "محمد بن شمس الخلافة" الذى كان مع "الصالح" ساعة اغتياله :

"وكان فى الوفاء لبنى رزيك نصيرى الموالاة والعقيدة وحضر مع الصالح يوم قاعة الذهب فقاتل عنه أشد القتال ولم يزل يضرب بسيفه حتى انقطع من وسطه نصفين فلما لم يبق معه سيف ألقى بنفسه على الصالح وهو طريح فى دهليز السرداب ووقاه بنفسه فلم تزل السيوف تنحره حتى قام الصالح وتكاثر الناس وذكرته فى قصيدة رثيت بها الصالح يوم نقل تابوته إلى القرافة منها :

أوْفَى أبـو حسنٍ بعهـدِك عندَمـا ... خَذلـتْ يمـينٌ أختَـها ويسارُ

لاتسـألا إلاّ مضـاربَ سيفِـهِ ... فلـقدْ تزيـدُ وتنـقصُ الأخبـارُ

حتى إذا انقـطَع الحسـامُ بكـفّهِ ... وانفـلّ مـنه مـضربٌ وغـرارُ

ألقـى عليـك وقايـةً لك نـفسَه ... لمـا انْتَحتْك صـوارمٌ وشـفارُ

إن لـم يـذق كأس الـردى فبقلـبِه ... مـن خَمْرِها أسـفاً علـيكَ خـمارُ

هـى وقـفةٌ رُزِق المكـرَّمُ حمدَهـا ... وعلـى رِجـالٍ لؤمُـها والعـارُ(٢)

وكأن عمارة اليمنى كان يتنبأ بموت الصالح ومآل الوزارة إلى ابنه "رزيك"، حينما أنشده قبل وفاة والده بثلاثة أيام :

أبوكَ الذى تسـطُو الليالـى بحـدِّه ... وأنت يمـينٌ إن سَـطا وشِمـالُ

لرتبتـه العظـمى وإنْ طـالَ عمـرُه ... إليك مصـيرٌ واجـبٌ ومـآلُ (٣)

(١) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٣١١ .
(٢) ديوان عمارة اليمنى ، ص ١٤٥ .
(٣) عمارة اليمنى ، ص ٤٩ .

وقبل أن يلفظ الصالح أنفاسه الأخيرة أوصى بالوزارة من بعده لولده "رزيك" ومضى عمارة اليمنى يهنىء رزيك بمنصب الوزارة ويقارن بين عهدين : عهد كان فيه عباس وابنه يملكان أمرها والمجد نافر منهما، وعهد تولى الصالح أمرها ثم أورثها ولده رزيك من بعده وكلاهما آية فى الفضل والصلاح، فاستبدلت الوزارة عصر الصلاح بعصر الفجور.

الصالحُ الهادِى لـه والدٌ ... لقد تساوى النجْرُ والتَّاجرُ

تباركَ المعطِى لكمْ هذِه ... الرتبةَ فهوَ الملكُ القادرُ

رداؤُها فوقَكُمُ لائقٌ ... وهو على غيرِكم نافرُ

قدْ كان عباسٌ بها وابنُه ... والمجدُ فيها مُكْرَهٌ صاغرُ

ولمْ يزل فوقَهما سترُها ... مُرْخَى إلى أنْ قُتِلَ الظَّافرُ

فأصبحتْ أستارُه عنهما ... مكشوفةً إذْ غضب الساترُ

تعوَّضتْ عن فاجرٍ صالحاً ... لايستوى الصالحُ والفاجرُ (١)

بين الوزيرين رزيك وشاور :

وكما اعتلى الصالح منصب الوزارة على جثث القتلى ودعها وهو يتخبط فى دمائه، فلا بد أن يستمر هذا النهر المتدفق من الدماء يحوط بركب الوزارة. فقد جد "رزيك" فى طلب ثأر أبيه من المدبرين والمنفذين، وإن كان عمارة شاعرهم لايرى تكافؤا بين الجناية والقصاص ويصب لعناته على القاتلين ويتهمهم بالحمق والجهل ويبشرهم سوء العاقبة :

غضبَ الإلهُ على رجالٍ أقدمُوا ... جهلاً عليه وآخرين أشاروا

لاتعجبنْ لقدارِ ناقةِ صالحٍ ... فلكلِّ عصرٍ صالحٌ وقدارُ

أحللتَ دارَ كرامةٍ لا تنقضى ... أبداً وحلَّ بقاتليك بوارُ

وقع القِصاصُ بهم وليسوا مقنعا ... يرضى، وأين من السَّماء غبارُ

ضاقتْ بهم سعةُ الفجاج وربمَّا ... نامَ الولىُّ ولا ينامُ الثارُ (٢)

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤٥ .

(٢) عمارة اليمنى ٥ ص ٦٤ (الديوان)

ولكن أمير الجيوش شاور "يثور على "رزيك" ويتقدم بجيوشه نحو الغربية ويخرج "رزيك" للقائه وتدور الدائرة عليه ويتولى الوزارة "شاور" من بعده. وقد شاهد عمارة اليمنى رأس "رزيك" في الوزارة، وحدثنا عما رأى : "دخلت قاعة السر من دار الوزارة وفيها طى بن شاور وضرغام وجماعة من الأمراء مثل عز الزمان ومرتفع الظهير ورأس رزيك بن الصالح بين أيديهم فى طست فما هو إلا أن لمحته عيني ورددت كمى على وجهى ورجعت على عقبى وما ملأت عينى من صورة الرأس ومامن هؤلاء الجماعة الذين كان الرأس بين أيديهم إلا من مات قتيلا وقطعت رأسه عن جسده، فأمر طى من ردنى. فقلت : والله ما أدخل حتى تغيب الرأس عن عينى. فرفع الطست وقال لى ضرغام لم رجعت ؟ .. لو ظفر رزيك بأمير الجيوش أو بنا ما أبقى علينا.

قلت : لاخير كفى شىء يؤول الأمر بصاحبه من الدست إلى الطست، ثم خرجت وقلت :

أعــزِزْ عَـلىَّ أبـا شـجاعٍ أنْ أرى ... ذاك الجَـبين مضــرجًا بدمــائه

ماقــلَّبتْه ســوى رجــالٌ قــلَّبوا ... أيديهـُـم من قـبلُ فى نعمــائهِ (٢)

ونرى الشعراء يصورون مقتل "رزيك" وتولى "شاور" الوزارة بصور مختلفة لاشك أنها ترجع إلى قوة أو ضعف علاقاتهم الشخصية بالوزراء. فعمارة اليمنى يرثى بنى رزيك ويهنىء "شاورا" معتذرا له عن الوفاء لهم :

ومـاقصـَّـرتُ بتعظيمى سـواك سـوى ... تعظـَيم شـأنِك فاعـذُرْنى ولا تلُـمِ

ولو شــكرتُ لـيـاليهم محــافظـةً ... لعهــدِها لم يكنْ بالعــهدِ من قـدمِ

ولــو فتحــتُ فمى يومــاً بذمِّـهمُ ... لم يرضَ فضــلـك إلا أنْ يُسـدَّ فمى

واللــهُ يأمرُ بالإحســانِ عـارفةً ... منه وينهى عن الفحشاءِ فى الكلم (٣)

ولكن الشاعر "ابن النحاس" يطالب بالقصاء على من بقى من "بنى رزيك" وعدم قبول عذرهم جزاء وفاقا لما فعلوه مع غيرهم أيام سطوتهم وملكهم :

هــم أســروا كمال الدين صُــبحا ... فهــاهم فى يديــه اليومَ أسـرى

---

(١) عمارة اليمنى ٥ ص ٦٤ (الديوان) .
(٢) المرجع السابق ، ص ٦٦ .
(٣) ديوان عمارة اليمنى ، ص ٧٠ .

فـــإنْ جـــاءوك واعـــتذروا بعـــذرٍ فلاتقـــبلْ من الطـــاغين عذرا (١)

بين شاور وضرغام :

وعلى الرغم مما كان يتمتع به "شاور" من الدهاء والحيلة فإن لعنة الوزارة لا محالة تصيبه، فقد ثار "ضرغام" نائب الباب وفرَّشاور محاولا أن يتحدى لعنتها، وأفلح فى تحديه حينا من الدهر، عندما لجأ إلى الشام سنة ٥٥٨ هـ وطلب من سلطانها أن يعينه فى الوصول إلى منصب الوزارة. وعهد له بتقديم معونات وتسهيلات فى مصر من شأنها أن تشد عضد "نور الدين" ضد أعدائه الصليبيين فأرسل معه جيشا بقيادة "أسد الدين شيركوه" مكنه من الوزارة. وفرَّ ضرغام متخفيا. ولكن أحد الجنود تعرف عليه وقطع رأسه وأرسل بها إلى "أسد الدين شيركوه" ثم طافوا برأسه. وكان عمارة يسكن شط الخليج بالقاهرة وشاهد رأس "ضرغام" فوصف لعنة الوزارة على أصحابها مرتجلا :

أرى حـــتْفَكَ الوزارةِ صـــارَ ســـيفاً يحـــدّ يحـــدهُ صـــيدَ الرِّقـــابِ
كـــأنَّك رائـــدُ البلـــوى، وإلا بشـــيرٌ بالمنيَّـــةِ والمصـــاب (٢)

وعاد "شاور ليعتلى عرشها من جديد بعد غيبة دامت تسعة أشهر بالتمام أطلق عليها الشاعر "عمارة اليمنى" (مدة الحمل) وراح من جديد يهنىء "شاور" وأبناءه بانتصارهم وعودتهم إلى الحكم ملحا على الحقيقة المرة ، وهى أن الوزارة فى ذلك العصر كانت مقبرة الوزراء، وأن أحدا لم تبتسم له بعد تنكرها غير "شاور" وأهله.

فى مـــدَّةِ الحـــملِ أدركتُم جنابَهـــمُ عـــلى عُـــلاكم بأخـــذِ الملكِ والثـــارِ
إن الـــوزارة لو خـــلَّيتَها رجـــعتْ إليـــك طائعـــة من غـــيرِ إجـــبارِ
وماعـــلمْنا وزيـــراً قـــبلَ دولتكـــم ردَّت له وجَـــه عُرفٍ بعد إنكـــارِ (١)

وغصت أيام شاور بالفتن والثورات، فلم يواجه عداء ضرغام وحده، أو تطلعات القوى الخارجية فحسب، بل قامت ضده ثورة عارمة شنها "يحيى بن الخياط" الذى لاذ بالصعيد. وكان

---

(١) الخريدة ، جـ٢ ، ص ١٢٣ .
(٢) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٣٣٣ .

"ابن الخياط" من رجال الدولة الفاطمية منذ زمن الصالح بن رزيك. ويذهب صاحب الروضتين إلى القول : بأن "ابن الخياط" ساعد الفرنجة فى القدوم إلى مصر قبيل حملة شيركوه الثالثة سنة ٥٦٤ هـ، نكاية فى شاور وانتقاما منه. (٢)

وقد أفاض عمارة فى وصف المعارك التى دارت وسجلت انتصار شاور على خصمه فى العديد من المعارك التى شهدتها بلاد الصعيد فى "اشنا، ودهروط" وغيرهما، كما أشاد ببطولة شجاع بن شاور الذى قاد هذه المعارك :

جلبتَ إليه عُصْبة كاملية ... بأمثالهم تُبْنى المعالى وتُهدَمُ
صَدَمْتَ بِها يحيىَ وقدْ كاد أمره ... وتدبيُره الثانى يتمُّ ويُبْرَمُ
ولم يقدمِ الفسطاطَ إلاَّ وعزمُه ... يؤخِّرُ رجلاً خوفُه ويقدِّمُ
وماجهلتْ أيامُ إشنا وطنبذ ... وساحلِ دهروط بأنَّك ضَيْغَمُ
وقفتَ بِها تحمى فوارسَك التى ... كُفيتَ أذاهم حين دافعتَ عنهم
وأبقيتَ فيها ياشجاعُ بنُ شاورٍ ... طرازاً على كم الشجاعة يُرْقَمُ (٣)

وإذا كان أدب هذه الفترة صور لعنة الوزارة على أصحابها وأفاض فى ذلك كثيرا، فإنه لم يصور لعنتها على مصر والمصريين الذين دفعوا ثمن تلك المهاترات، وأصابتهم نكبات فى الأموال والأنفس والثمرات. يؤكد هذه الحقيقة ماذكره "أبو شامة" من أن "شاور" تعهد للفرنج بدفع ألف دينار مصرية عن كل مرحلة يقطعونها من عسقلان إلى قاقوس لمساعدته فى استقراره بمنصب الوزارة وقد دفع لهم سبعة وعشرين ألف دينار(٤) . وما كان أحوج مصر إلى كل درهم من هذه الأموال تشد به أزرها فى مواجهة الزحف الصليبى ومقاومة الأزمات الاقتصادية.

ويصف عمارة اليمنى مقدار مادفعه "شاور" من الأموال فى سبيل وصوله واستقراره بالوزارة فيخاطبه قائلا :

---

(١) ديوان عمارة اليمنى ص ٢٥٧ .
(٢) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٣٨٩ .
(٣) ديوان عمارة اليمنى ، ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .
(٤) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٢١ .

أبليتَ فيها بما سيِّرتَ من عددٍ ... ومن عديدٍ الى الأعداءِ ينثالُ

لولا بيوتٌ من الأموالِ جُدْتَ بها ... على عساكرِها لم يستقِم حالُ (١)

وطبيعى أن تنهك الصراعات قوة الجيش المصرى ويقف شاور عاجزا عن حماية مصر من أعدائها . ولعل عمارة يفسر ذلك العجز بقوله :

وما مضى بكَ يومٌ ليس فيهِ على ... أيامِ ضرغام تدبيرٌ وأعمالُ (٢)

وقد اشتط شاور فى استخدام العنف، فعندما عاد من حصار الإسكندرية أكثر من سفك الدماء بغير حق، وكان يأمر بضرب الرقاب بين يديه فى قاعدة البستان من دار الوزارة ثم يسحب القتلى خارج الدار.

وقد كتب عمارة قصيدة فى ذلك المعنى ناشد فيها "شاور" أن يضع السيف وأن يلجأ إلى العفو والتسامح :

ألا إنَّ حدَّ السَّيفِ لمْ يُبْقِ خاطراً ... من النَّاسِ إلا حائراً يتردَّدُ

ذعرْت الورى حتى لقد خاف مصلحٌ ... على نفسِه أضعافَ ماخافَ مفسدُ

فاغمدْ شفارَ المشرفيِّ وعُدْ بنا ... إلى عادةِ الإحسانِ وهى التفضُّلُ

فإنَّ بروق الماضياتِ وصوتَها ... رواعدُ منهنَّ الفرائصُ ترعدُ

وإنَّ صليلَ السَّيفِ أفحشُ نغمةٍ ... تظلُّ تغنى فى الطلى وتغرِّدُ

تجاوز وإلاَّ فالمقطِّمُ خيفةٌ ... ينوبُ وماءُ النِّيلِ لاشك يَجْمُدُ (٣)

وفى موقف آخر يصور عمارة ضراوة القتال الذى دار بين الخصمين "شاور" وضرغام" ومن ساندهما :

وتَنُّوفةٍ بالجيش ضاقَ مجالُها ... فالنَّبْلُ فيها والقنا لا يعسلُ

---

(١) ديوان عمارة اليمنى

(٢) المرجع ، السابق ص ٣١٩

(٣) ديوان عمارة ، ص ٨٧ .

غـــادرتَ يـومَ عـداكَ فـيها أيوْمـــا وتركـــتهم والليـــلُ فيـــها أليـــلُ
ورميتـهم بالجُـرْدِ وهـــى أجـــادلُ منقضَّـــةٌ مـــن فوقـِـهم أو جَـندلُ
وتوهـــموا لمـعَ الحـــديدِ ولونَـه روضـــاً بوارقُـــه تجـودُ وتهطـلُ
فـإذا اخضـرار الروض درعٌ سـابلٌ والغصـــنُ رمـــحٌ والمهنَّدُ جـدولُ (١)

مقتل شاور وتولية أسد الدين شيركوه :

ولكن الأحداث تتوالى لتؤذن بقدوم مرحلة جديدة تقف عندها مهازل هذا الصراع والتمزق الداخلى. فقد ظل "شاور" يحاور ويناور حتى انتهى به المطاف قتيلا بأيدى الأيوبيين بعد أن قدم "أسد الدين شيركوه" وبعث إليه الخليفة الفاطمى بخلع الوزارة إثر مقتل شاور. وراح العماد يهنىء مصر بصفحة جديدة.

هنيئـاً لمصـــرَ حَوْز يوسفُ ملكَـــها بأمـــرٍ من الرَّحـــمن قد كان مُوقوتا
وما كـــان فيـــها قتلُ يوسف شـــاورا يمـــاثل إلاَّ قـــتلَ داودَ جـــالوتا
وقـــلتُ لقلبى : أبشـــرْ اليومَ بالمـنَى فقد نلت ما أملت، بل حُزْتَ ماشيتا (٢)

موقف الشعب المصرى من الصراع الوزارى :

وقد يطرح سؤال نفسه من خلال هذه الأحداث : لماذا لم يقم الشعب المصرى بثورة تضع حدا لهذه المهازل التى تدور على أرضه ويكتوى بنارها ؟

ونعود إلى ماحللنا به شخصية مصر السياسية فيما سبق لنجد إجابة لهذا السؤال :

إن الاستقرار والهدوء هما أساس الحياة المصرية، وما حل بمصر من نكبة اقتصادية ومجاعة فادحة فى عصر المستنصر ليس له سبب غير اختلال الأوضاع الداخلية كما قرر ذلك الدكتور راشد البراوى فى كتابه "حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين".

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٢١.

(٢) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٤٥٥ .

ومن جهة أخرى لم تعتبر مصر هؤلاء الوزراء المتصارعين أجانب عنها تماما فهم مصريون قدموا إليها فى الأصل متمصرين يعملون فى خدمتها وإن كانوا من أجناس غير مصرية لكنهم تمصروا كغيرهم من الأجناس المختلفة، فتقبلت مصر تصارعهم على مضض وكره كما يقبل أى شعب من شعوب عالمنا المعاصر حركات الانقلاب التى تحدث فى كثير من البلاد على كره واستنكار . وقد تذرع هؤلاء الوزراء بحب مصر وحرصهم على ضبط أمورها وأكد شعراؤهم هذه المعانى فى مديحهم فكيف تثور مصر على من يزعمون حب الخير لها ولو كان ذلك ادعاء منهم ؟ .. إن وجه التحدى غير سافر فى هذه المشاحنات، والشخصية المصرية وئيدة الخطى فى ثوراتها ما لم تمس الإهانة جوهر عقائدها وأصيل موروثها لأنها غير نزاعة إلى التمرد والثورات. وقد كان المتخاصمون مسلمين أو هكذا كانوا يعرفون. فعلى من تثور مصر الإسلامية وهى تواجه خطرا صليبيا يطرق الأبواب ويحتاج الى جمع الشتات ورأب الصدع ؟

ومن هنا وقف الشعب المصرى موقفا أقرب إلى السلبية، وقد نجح فى موقفه فإن الأحداث قد أتت بالقائد الذى التفت مصر حوله وقامت بثوراتها الحقيقية لتبطش بالغول الصليبى الذى أرهب المنطقة سنوات طوال، وهذا ما ستكشف عنه طبيعة الثورة المصرية إبان الحروب الصليبية.

الاحتكاك المذهبى بين الشيعة والسنة

طبيعة الاحتكاك :

أوثر وصف التحول المذهبى فى مصر بالاحتكاك، وإن كان يحلو لبعض أدباء تلك العصور أن يصوره صراعا مريرا، كما يفسرون دوافع التحول التى مرت بها مصر وماترتب عليه من آثار بنزعة عصبية مذهبية أو عنصرية.

فالعماد الأصفهانى، وهو سنى متعصب يفسر تدخل نور الدين فى شئون مصر بدوافع العصبية المذهبية فهو يخاطب شيركوه قائلا :

أنتَ مَنْ نازلَ الدَّعيِّين في مَصر لنصر الإمام في بغداد
وبلاد الإسلام أنقذتَها أنت من الشركِ أيَّما إنقاذ (١)

فهل كانت أطماع "نور الدين" في مصر أطماعا مذهبية كما يذهب العماد ؟ وإذا كان "نور الدين" وجنده وقادتهم من بني أيوب ينطلقون من دافع العصبية المذهبية فهل رحبت بهم مصر وعلى رأسها الخليفة الشيعي العاضد لهذا الغرض ؟

ومن منطلق العنصرية – أيضا – يستقبل الشاعر العرقلة "أسد الدين شيركوه" عند عودته إلى الشام بعد حملته الثانية على مصر سنة ٥٦٢ هـ ليثيرها عصبية ذات طابع شعوبي يفضل فيها الجنس التركي على الجنس العربي.

أقولُ والأتراكُ قد أزمعتْ مصرَ إلى حَرْبِ الأعاريبِ
ربَّ ، كما ملَّكْتَها يوسف الصِّديق من أولادِ يعقوبِ
يملكها في عصرنا يوسُفُ الصادقُ من أولادِ أيوبِ
من لَمْ يزلْ ضرَّابَ هامِ العدا حقاً وضرَّاب العراقيبِ (٢)

لم يهتد هذا الشاعران إلى حقيقة الموقف، بل عكسا مافي نفسيهما من روح العصبية في المذهب أو الجنس، ربما عن إيمان ذاتي بها، أو تقليد للموروث من التراث الأدبي المنحدر من عصور الأزدهار والذي مثلت فيه الشعوبية دوراً كبيراً، وربما عن تأثير البيئة التي شبا وترعرعا فيها فكلاهما لم يكن شاعراً مصرياً، ولم يكن العماد قد اتصل بعد بالبيئة المصرية اتصالا يمكنه من فهمها ومعرفة شخصيتها. ولانجد هذا التعصب واضحا لدى أدباء مصر الذين امتزجوا بأهلها وتمصروا فيها. فعمارة اليمني وهو الشاعر المقرب للفاطميين لم يكن شيعيا

(١) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٣٨٤ .
(٢) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٣٦٤ .

وماضرّه ذلك من أن ينال حظه فى ظل سلطانهم (١)

والقاضى الفاضل الذى كتب للفاطميين والأيوبيين لم يكن شديد التحمس فى شعره أو نثره لنزعة مذهبية أو عصبية كالتى أثارها العماد أو غيره.

وقبل أن يبدأ تدخل "نور الدين" فى شئون مصر، وقفت كل من مصر الشيعية والشام عدوها الصليبى بل راحت مصر الشيعية تستحث الشام على خوض المعارك المشتركة فالوزير الشاعر الفاطمى "طلائع بن رزيك" يزف البشرى إلى مؤيد الدولة "أسامة بن منقذ" بانتصار الغزاة المصريين ويستحث جنود "نور الدين" أن يغيروا على العدو حتى تستطيع القوتان معا تحطيم شوكته.

سارتْ سرايَانَا لقصدِ الشّام تعتسفُ الرِّمالا
هذا، وفى تلّ العجا ل ملأنَ بالقتلى التلالا
إذا مرَّ "مُرِّىٌ" ليس يلوى نحو رفقتِه اشتغالا
فلو أنَّ نورَ الدينِ يجعلُ فعلَنَا فيهِم مثالا
ويسيِّرُ الأجنادَ جهراً، كى ينازلَهم نزالا
ووفى لنا، ولأهلِ دولتِه، بما قدْ كان قالا
لرأيتَ للإفرنجِ طرا فى معاقلِها اعتقالا
وتجهّزوا للسَّيْرِ نحوَ الغربِ، أو قصدوا الشمالا
وإذا أبى إلا اطراً حا للنصيحةِ واعتزالا
عُدْنا بتسليمِ الأمو رِ لحكمِ خالقِنا تعالى (٢)

---

(١) يحكى عمارة اليمنى عن موقف تعرض له حين سمع بمحضر الوزير الصالح طلائع بن رزيك بعض الجالسين يخوضون فى ذكر السلف فاعتزل مجلسهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وقال للصالح لولا أبوبكر وعمر لم يبق الإسلام علينا ولا عليكم وإنه ما من مسلم إلا ومحبته واجبة عليه ثم قرأ : « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلاّ من سفه نفسه » فضحك الصالح » انظر النكت العصرية . عمارة اليمنى ص ٤٥ .

(٢) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

فيجيبه أسامة شاكرا ومطمئنا، وداعيا إلى مزيد من التعاون مع "نور الدين" الذى صمم على حماية بلاد الشام ومنازلة أعدائها الصليبيين :

يا أشرفَ الوزراءِ أخْلاقاً، وأكرَمَهم فَعالا
نَبَّهتَ عبْداً طالما نبهْتَه قدرا وحالا
وعتبتَه ، فأنلتَه فخراً، وحمداً ، لن ينالا
فاسْلم لنا حتَّى نرى لك في بني الدُّنيا مثالا
واشْدُدْ يَديْك بودِّ "نو رِ الدين" والْحق بِه الرجالا (١)

وتوالت كتابات طلائع بن رزيك إلى مؤيد الدولة أسامة بن منقذ، يستحثه على قتال المشركين ويؤكد على مواصلة القتال ورفض صلح الأعداء :

وقد كاتبوا في الصُّلح، لكنْ جوابهم بحضرتنا ماتكتبُ الخطُّ لا الخطُّ
سطور خيولٍ لاتغبُّ ديارُهم لها بالمواضي والقنا الشكلُ والنقطُ
فقولُوا لنورِ الدين : ليس لخائف ال جراحاتِ إلا الكيُّ في الطبِّ والبطُّ
وحسْمُ أصولِ الداءِ أوْلى بعاقلٍ لبيبٍ إذا استولى على المِنف الخلطُ (٢)

لقد كان التعاون الشيعي السني واضحا في موقف مصر من العدو الصليبي المشترك ولكن التاريخ كما يلاحظ الدكتور محمد كامل حسين – أغفل هذه الناحية (٣). وفي أدب المراسلات الذى عرضت طرفا منه مايؤيد ذلك الرأى ويدعمه.

حملات شيركوه على مصر :

ولما أخذ الاحتكاك السني الشيعي صورة تدخل في شئون مصر كشف عن حقيقة الشخصية المصرية وموقفها من هذا الاحتكاك. فحملة "أسد الدين شيركوه" الأولى كانت استجابة لطلب الوزير المصرى المخلوع الذى لم يتخذ من إغراء "نور الدين" بتحويل مصر سنية سبيلا إلى تحقيق مطلبه، وإنما ذكره بالخطر الداهم الذى يترصد مصر المسلمة، وما يمكن أن

(١) المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٩٤ .
(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٩٨ .
(٣) راجع فكرة الدكتور محمد كامل حسين مفصلة فى كتابه « فى أدب مصر الفاطمية » ص ٢٦٤ .

يجلبه سوء أحوالها الداخلية من عواقب سيئة. ومن هذه الزاوية أعد جنوده وسيرها إلى مصر، وما كان أحوجه إليها يشن بها غارات على الحصون الصليبية المتاخمة لكنه اعتبر هذه الحملة جزءا من قتال الصليبيين لا من قتال الشيعة أو المصريين. وما دار من مراسلات بين أسد الدين شيركوه والوزير المصرى شاور يؤيد ذلك (١) .

وعندما تحرك شيركوه وجنوده للمرة الثانية إلى مصر كانت تحركه دوافع نصرة المسلمين بامتلاك مصر والأخذ بيدها.

بِمُلْكِ مصـرَ ونصْـرِ المؤمـنين غـدا ... تحظـى النفـوسُ بتأنيسٍ وتطييبِ

ويسـتقرُّ بمصـر يوسـفٌ ويـه ... تقـرُّ بَعد التنـائى عْينُ يعـقوبِ

ويلتـقى يوسـفُ فيها بإخـوتِه ... واللهُ يجمعُـهم من غيرِ تثـريبِ (٢)

ولما وصل "شيركوه" إلى مصر وخيم بالجيزة لقى مساندة من المصريين وانضم الى جنده قوم يقال لهم الأشراف الجعفريون والصلحيون والقرشيون لانصرة السنيين على الشيعيين بل للدفاع عن مصر والمسلمين. ولقد كان هذا الإحساس ماثلا أمام "شيركوه" كما تبديه رسالة بعث بها إلى "شاور" يقول فيها : أنا أحلف لك بالله الذى لا إله إلا هو، وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه، أننى أقيم ببلاد مصر ولا أعاود إليها أبدا، ولا أمكن أحدا من التعرض لها ومن عارضك فيها كنت معك إلبا عليه، وما أؤمل منك إلا نصر الإسلام فقط : وهو أن العدو قد حصل بهذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة، وخلاصه عسير، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه، وننتهز فيه الفرصة التى قد أمكنت : والغنيمة التى كتبت، فنستأصل شأفته، ونخمد ثائرته، وما أظن أن يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبدا" (٣)

ومرة أخرى يتعاون الشعب السكندرى مع جند شيركوه معبرا عن الطابع الإسلامى لا المذهبى أو التعصب العقائدى، فعندما استنجد "شيركوه" بأهل الإسكندرية قاموا معه وأمروا عليهم "نجم الدين بن المصال" ولما سار شيركوه إلى الصعيد قدموا له معونات مالية كبيرة.

---

(١) كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ٤٢٣ .
(٢) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٣٩٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٢٥ .

ووقفت الإسكندرية صلبة مع صلاح الدين ولم يخرج منها حتى استحلف شاور ألا يتعرض لأحد من أهلها بسوء. ومع ذلك فإن العماد الأصفهانى يفصل أحداث هذه الحملة فى أكثر من قصيدة، ولم يشر إلى تعاون المصريين مع شيركوه. بل كان يردد دائما نغمة انتصار السنية، وانهزام الشيعية ويبشر بزوالها من مصر .

فهو يخاطب "شيركوه" بقوله :

من دمِ الغـــادرين غـــادرتَ بالأمـــس صعـــيدَ الصَّعـيد وهـــو غـــديرُ

ولكلٌ ممـــا تطـــاولتْ فيهـــم أمـــلٌ قاصـــرٌ وعـــمرٌ قصـــيرُ

لاذ بالنـــيلِ شـــاورٌ مثـــلُ فرعـــو نَ، فـــذلُّ اللاجـــى وعـزُّ العبورُ

شـــارك المشـــركين بغـــياً، وَقـدْ ما شاركَـــتها قريظـــةُ والنَّضـــيرُ

والـــذى يدَّعـــى الإمامـــة بالقـــا هـــرةِ ارتـــاع أنَّـــه مقـــهورُ

وحمـــيت الإســـكندرية عـــنهم ورَحـــىَ حـــربهم عليهـــم تـــدورُ

حاصـــروُها وما الذى بـــان مـــن ذَبِّك عنـــها وحفظُـــها محصـــورُ

ولكـــم عـــودةً إلى مصـــر النصـر علـــى ذكـــرِها تمـــرُّ العصـــورُ

فاســـتردوا حـــقَّ الإمامـــةِ ممـــن خـــان فيهـــا فإنَّه مســـتعيرُ (١)

وقد جاء "شيركوه" ومعه "صلاح الدين" للمرة الثالثة إلى مصر سنة ٥٦٤ هـ بعد استصراخ القصر الفاطمى ونداء الوزير المصرى وضجر الناس كافة من سوء مايعانون فالصليبيون على أبواب القاهرة ولهم فيها حامية عسكرية، والخليفة عاجز عن ردع أى خطر على البلاد. وتطلعت مصر إلى مسلمى الشام متجاوزة عن كل الفوارق المتعلقة بالمذهب الدينى أو العرق الجنسى وعن كل ما ينم على الروح الشعوبية، واستقبلت "شيركوه" فرحة مستبشرة يقول العماد الأصفهانى : "عجل شاور لملك الفرنج بمائة ألف دينار حيلة وخداعا وإرغاما له وإطماعا، ووصل بكتبه إلى "نور الدين" مستصرخا مستنصرا، وبما ناب الإسلام من الكفر مخبرا، وسير

(١) كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ٣٧٢ ، ٣٧٣ .

الكتب مسودة بمدادها. كاسية لباس حدادها، فى طيها نوائب مجزوزة، وعصائب محروزة أظن أنها شعور أهل القصر، للإشعار بما عراهم من بلية الحصر. وأرسله تباعا، وأردف بها نجابين سراعا، وأقام منتظرا، ودام متجبرا، وعامل الفرنجة بالمطال ينقدهم في كل حين مالا، ويطلب منهم إمهالا. ومازال يعطيهم ويستمهلهم حتى أتى الغوث بعساكر نور الدين رحمه الله تعالى (١) .

وكانت جموع الصليبيين قد دخلت مدينة "بلبيس" وقتلت وأسرت، ولما قاربت مصر أمر "شاور" بإحراقها وظلت النار بها أربعة وخمسين يوما مشتعلة، ولئن حال حريق مصر دون استيلاء الصليبيين عليها، فإنهم أخذوا يرقبون جنود الشام، ولكن حيطتهم باءت بالبوار إذ وصل شيركوه عن طريق آخر غير طريق الساحل الذى راقبوه. وفى ذلك يقول عمارة اليمنى مخاطبا شيركوه وجنوده :

أخذْ ثُم على الإفرنج كلَّ ثنيةٍ ... وقلتم لأيدي الخيل مرِّى على "مرى"

لئن نصبُوا فى البرِّ جِسْراً فإنكم ... عبرتمُ ببحرٍ من حديدٍ على الجسْرِ (٢)

قال العماد : ودخل أسد الدين الإيوان، وخلع عليه ولقى الإحسان.

وتردد شاور إلى أسد الدين وتودد، وتجدد بينهما من الوداد ما تأكد، وأقام للعسكر الضيافات الكثيرة والأطعمة الواسعة، والحلاوات والميرة فقال صلاح الدين : هذا أمر يطول ومسألة فرضها يعول، ومعنا هذا العسكر الثقيل، وإقامته بالإقامة يقصر عنها الأمد الطويل، ولا أمر لنا مع استيلاء شاور، ولا سيما إذا راوغ وغادر. واعترضه صلاح الدين فى الأمراء النورية وهو راكب على عادته فى هيبته الوزيرية، فبغته وشحته، وقبضه وأثبته، ووكل به فى خيمة ضربها له، وحاول إمهاله. فجاء من القصر من يطلب رأسه، ويعجل من العمر يأسه. وجاء الرسول بعد الرسول، وأبوا أن يرجعوا إلا بنجح السول. فحمَّ حمامه وحمل إلى القصر هامه (٣) .

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ، ص ٣٩٢ .

(٢) النكت العصرية ، عمارة اليمنى ، ص ٨٠ .

(٣) كتاب الروضين ، جـ ١ ، ص ٣٩٨ .

وبعد مقتل "شاور" بعث الخليفة الفاطمى بخلعة الوزارة إلى شيركوه فلبسها وقصد دار الوزارة وأرسل إليه الخليفة هذا المنشور :

"من عبد الله ووليه أبى العاضد لدين الله أمير المؤمنين، إلى السيد الأجل الملك المنصور، سلطان الجيوش، وولى الأئمة، مجير الأمة، أسد الدين، كافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين، أبى الحارث شيركوه العاضدى، عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته، وأعلى كلمته.. سلام عليك، فإنه يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلى على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الظاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليما.

هذا عهد لا عهد لوزير بمثله ، وتقلد أمانة رأك أمير المؤمنين أهلا لحمله، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة النبوة. واتخذه للفوز سبيلا، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا . (١)

وزارة صلاح الدين :

ولم يمض على وزارة أسد الدين شيركوه أكثر من شهرين وخمسة أيام حتى عاجلته المنية. ولما فرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت آراؤهم واختلطت أهواؤهم وكاد الشمل لا ينتظم والخلل لا يلتئم. فاجتمع الأمراء النورية على كلمة واحدة وأيد متساعدة، وعقدوا لصلاح الدين الرأى والراية، وأخلصوا له الولاء والولاية، وما زاده الملك ترفعا وما أفاده إلا تأصلا فى السماح وتفرعا، وضم من أمر المملكة ما كان منشورا وهو بالمثال الكريم الفاضلى الذى هو السحر الحلال والعذب الزلال". ففى ذلك المنشور:" والجهاد أنت رضيع ثره، وناشئة حجره، وظهور الخيل مواطنك، وظلال الخيام مساكنك، وفى ظلمات قساطله تجلى محاسنك، وفى أعقاب نوازله تتلى مناقبك فشمر له عن ساق من القنا، وخض فيه بحرا من الظبا، واحلل فى عقد كلمة الله وثيقات الحبا، وأسل الوهاد بدم العدا، وارفع برءوسهم الربا حتى يأتى الله بالفتح الذى يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخورا لأيامك، وشهودا لك يوم مقامك" (٢) .

---

(١) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٤٠٢ ، ٤٠٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠٩ .

ويبعث إليه العماد من الشام مهنئا :

فتحتَ مصرَ وأرجـو أن تَصيرَ بهـا ... ميسّرا فتحَ بيتِ القدسِ عن كَثَبِ

من شرِّ "شاور" انقـذتَ العبادَ فكم ... وكـم قضيتَ لحزبِ اللـهِ من أربِ (١)

نهاية الحكم الفاطمى :

ومنذ الأيام الأولى لوزارة شيركوه وأنظار حكام الشام وشعرائهم متجهة إلى تبديل نظام الحكم فى مصر. فها هو ذا العماد يكتب إلى شيركوه من الشام :

ردَّ الخلافـةَ عبّاسيةً، ودعِ الـسدَّ ... عـيٌّ فيـها يصـادفُ شرَّ منقـلبِ

لاتقطعـنْ ذنبَ الأفعـى وترسـلُه ... فالحزمُ عندى قطعُ الرأسِ كالذنبِ (٢)

ولكن الموت لايمهل شيركوه فيقوم بالعبء صلاح الدين حتى ينجزه فى أول المحرم سنة ٥٦٧ هـ، ولم ينتطح فيها عنزان كما يقول ابن الأثير (٣)

ويرسل القاضى الفاضل إلى الخليفة العباسى يخبره بإعادة الخطبة للدولة العباسية بمصر. حتى أتى الدنيا ابن بجدتها، فقضى من الأمر ما قضى، وأسخط من لله فى سخطه رضا، وجعل وجه لابس السواد مبيضا، فأدرك لهم بثأر نامت عنه الهمم، وبوخت عليه الأمم، وشفى الصدور، وجاء بالحق إلى من غره بالله الغرور، واستبضع إلى الله تعالى تجارة لن تبور (٤) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠٣ .
(٢) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٤٠٤ .
(٣) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ، جـ ١١ ، ٣٦٩ .
(٤) كتاب الروضتين جـ ١ ص ٦٢٤ .

وحدة الشام ومصر :

وتتطلع أنظار مصر الأيوبية إلى وحدة الشام معها لتتمكن من القضاء على الصليبيين ويرسل القاضي الفاضل إلى الخليفة العباسي يخبره بأهداف تطلع الحكم في مصر إلى توحيد صفوف المسلمين فيقول :

"توافت إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها، وتشتت الأمور وتقطعها، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب، وكل جانب قد طمح إليه طالب والفرنج قد بنوا قلاعا يتحيفون بها الأطراف الإسلامية، ويضايقون بها البلاد الشامية وأمراء الدولة النورية قد سجن كبارهم، وعوقبوا وصودروا، والمماليك الأعماد الذين خدموا الأطراف لا الصدور، وجعلوا للقيام لا للقعود في المجلس المحضور، قد مدوا الأيدي والأعين والسيوف. وساءت سيرتهم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وكل واحد يتخذ عند الفرنج يدا، ويجعلهم لظهره سندا. وعلمنا أن البيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه، وأمر الكفر إن لم يجرد العزم في قلعه، نبتت عروقه، واتسعت على أهل الدين خروقه، وكانت الحجة لله قائمة ، وهمم القادرين بالقعود آثمة. وإنا لانتمكن بمصر منه مع بعد المسافة، وانقطاع العمارة، وكلال الدواب التي بها على الجهاد القوة، وإذا حاورناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة.، واليد قادرة والبلاد قريبة، والغزوة ممكنة، والميرة متسعة ، والخيل مستريحة، والعساكر كثيرة الجموع، والأوقات مساعدة. وصلحنا ما في الشام من عقائد معتلة، وأمور مختلفة وآراء فاسدة وأمراء متحاسدة، وأطماع غالبة، وعقول غائبة، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه. فإنا به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه، ويظهرون الوفاء في خدمته، وهم عاملون بظلمه" (١) .

ويعدُّ صلاح الدين عدته ليضم بلاد الشام ويتحقق له ذلك ويقطع الخطبة للملك الصالح بن نور الدين، ويبعث إلى الخليفة العباسي يطلب إليه توقيعا شرعيا بحكم البلاد. وأنشأ القاضي الفاضل هذه الرسالة ووجهها إلى الخليفة العباسي ببغداد :

---

(١) كتاب الروضتين ، جـ ١ : ص ٦٢٢ ، ٦٢٣ .

كـــان أول أمـــرنا أنا كنا فى الشـــام نفتح الفتوحـــات مباشـــرين بأنفسنا، ونجـــاهد الكـــفار متقدمـــين لعســـاكره نحن وولدنا وعمنا... وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الأحـــوال عليه فـــيها من ســـوء التدبير ومما دولتها عـــليه من غـــلبة صغير على كبير... فســـمت هممـــنا دون هـــمم ملوك الأرض إلى أن نســـتفتح مقفلها، ونسترجع للإسلام شاردها، ونعـــيد على الدين ضالته منها، فسرنا إليها بعساكر ضخمة، وجموع جمة... كان فى تقدير الله سبـحانه أنا نملكـــها على الوجه الأحســـن، وتأخذها بالحكم الأقوى الأمكن.... وكان باليمـــــن ماعلم من ابن مـهدى الضال وله آثار فى الإسلام، وثار طالبه النبى عليه الصـــلاة والسلام لأنه سبى الشـــرائف الصـــالحات وباعهن بالثمـــن البخس، واستباح منهن كل مالا تقر عليه نفس، فانهضنا إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلفنا له نفقات واسعة وأسلحة رائعة، وسار فأخذناه والحمد لله.. وبالجملة فالشام لاينتظم أمره بمن فيه، وفتح بيت المقدس ليس له قرن يقوم به ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خصما لايمل الشر حتى يملوا، وقرناً لايزال يحرم السيف حتى يحلوا، وإذا سدد رأينا حسن الرأى ضربنا بسيف يقطع فى غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله ويد كل مسلم تحت برده، واستنقذنا أسيرا من المسجد الذى أسرى الله إليه بعبده.

هذا ما لاح طـــلبه على قدر الزمان والأنفس تطلب على مقدار الإحسان ، فإن فى استنهاض نيات الخدام بالإنعام ما يعود على الدولة منافعة ، وتنكأ الأعداء مواقعه وتبعث العزائم من موت منامها، وتنفض البصائر غبار ظلامها، والله تعالى ينجد إرادتنا فى الخدمة بمضاعفة الاقتدار، ومساعدة الأقدار إن شاء الله تعالى" (١).

---

(١) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، تحقيق د. جمال الشيال، القاهرة : دار القلم، الجزء الثالث، ص ٢٩١ وما بعدها.

يأيُّها الملكُ العزيزُ فضله ... لقد غدوتَ بالعُلا مليًّا

كفى أميرُ المؤمنين شرفا ... أنَّك أصبحتَ له وليًّا

طارحكَ الودَّ على شحطِ النَّوى ... فكنتَ ذاك الصادقَ الوفيا

أولاك من لباسِه زخرفةً ... لم يولُها قبلَك أدميا

ناسبتَ الرُّوضَ سنًا وبهجةً ... حتى حكتْه رونقًا وزيًّا (١)

وهكذا تصبح مصر عاصمة لإمبراطورية واسعة وقد تبدل نظام الحكم فيها من شيعى إلى سنى.

فتنة مؤتمن الخلافة وثورة السودان :

أحس المنتفعون بالسلطة فى ظل الخلافة الفاطمية مرارة التغيير ومضرته، فحاولوا أن يستعيدوا سالف مجدهم فى ظل الدولة البائدة. وكانت فتنة السودان أول الفتن التى واجهها صلاح الدين الأيوبى. وكان هؤلاء (السودان) كما يصفهم القاضى الفاضل :

"يزيد عددهم عن مائة ألف رجل كلهم أغنام أعجام، إن هم إلا كالأنعام، لايعرفون ربا إلا ساكن قصره، ولاقبلة إلا مايتوجهون إليه من ركنه (٢).

وقد عاصر العماد الأصفهانى هذه الواقعة وصورها لنا فى قوله : كان بالقصر خصى يدعى بمؤتمن الخلافة، متحكم فى القصر فدبر مؤامرة مع بعض رجاله وكاتبوا الفرنج، واتفق أن رجلا من التركمان عبر البئر البيضاء فرأى مع إنسان نعلين جديدين ليس بهما أثر مشى فأخذهما وجاء بهما إلى صلاح الدين، ففتقهما، فوجد مكاتبة للفرنج فيهما من أهل القصر يرجون بحركتهم حصول النصر، فأخذ الكتاب وقال : دلونى على كاتب هذا الخط فدلوه على يهودى من الرهط فلما حضروه ليسألوه، ويعاقبوه على خطه ويقابلوه : نطق بالشهادة قبل كلامه، ودخل فى عصمة إسلامه، ثم اعترف بما خباه وشيده من الأمر وبناه وإن الأمر به مؤتمن

(١) كتاب الروضتين ، جـ ١ : ص ٦٣٩ ، ٦٤٠.

(٢) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ ٣ ، ص ٢٩٢ .

الخلافة، وإنه برىء من هذه الأفة. واستشعر الخصى القصى، وخشى أن تسبقه على شق العصا العصى، فما صار يخرج من القصر مخافة، وإذا خرج لم يبعد مسافة، وصلاح الدين عليه مغضب وعنه مغض، لايأمر فيه ببسط ولاقبض، إلى أن استرسل واستبسل، فظن أن مانسله من الشر العقيم فصل. وكان له قصر يقرب قليوب، فخلا فيه يوما للذته، ولم يدر أنه يوم ذلته، وانقضاء ساعاته بانقضاء دولته، فانهض إليه صلاح الدين من أخذ رأسه، ونزع ماجاء به لباسه.

ويتابع العماد حديثه عن هذه الواقعة فيقول : ولما قتل غار السودان وثاروا وكانوا أكثر من خمسين ألفا. وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه وأذلوه، واستباحوه واستحلوه فحسبوا أن كل بيضاء شحمة، وأن كل سواد فحمة . فثار أصحاب صلاح الدين إلى الهيجاء، ومقدمهم الأمير أبو الهيجاء، واتصلت الحرب بين القصرين وأطاحت بهم العسكرية من الجانبين، ودام الشريومين، حتى أحس الأساحم بالحين وكلما لجئوا إلى محلة أحرقوها عليهم، وحووا ماحواليهم، وأخرجوا إلى الجيزة، وأذلوا بالنفى عن منازلهم العزيزة، فما خلص السودان بعدها من الشدة ولم يجدوا إلى الخلاص سبيلا وإنما وقفوا وأخذوا وقتلوا تقتيلا (١).

مؤامرة عمارة وأصحابه :

اجتمع جماعة من دعاة الدولة المصرية المتعصبة، المتشددة المتصلبة وتوازروا فيما بينهم خيفة وخفية، واعتقدوا أمنية، عادت بالعقبى عليهم منية وعينوا الخليفة والوزير وأحكموا الرأى والتدبير وبيتوا أمرهم بليل، وستروا عليه بنيل، وكان عمارة اليمنى الشاعر عقيدهم ودعا للدعوة قريبهم وبعيدهم. وكانوا قد أودعوا سرهم عند من أذاعه، واستحفظوامن أضاعه، وكادت آمالهم تدنو من الإدراك، فجاء زين الدين الواعظ وأطلع صلاح الدين على فسادهم، وماسولوه من مرادهم. ثم أمر السلطان بإحضار مقدميهم، واعتقالهم لإقامة السياسة فيهم، وصلب جماعة

---

(١) كتاب الروضتين ، جـ ١ ص ٤٥٠

منهم بين القصرين منهم عمارة، وأفنى بعد ذلك من بقى منهم، ومات بموتهم الخبر عنهم [1].

قال أبو شامة :"وبلغنى أن عمارة لما مروا به ليصلب عبروا به على جهة دار الفاضل فطلب الاجتماع به، فقيل ليس إليه طريق. فقال :

عبدُ الرحيمِ قدْ احتجبْ إنَّ الخلاصَ هوَ العجبْ [2]

ثورة الكنز :

فى أول سنة ٥٧٠ هـ قام المعروف بالكنز فى الصعيد. وجمع من كان فى البلاد من السودان والعبيد، وعدا ودعا القريب والبعيد. وكان عنده من الأمراء أخ لحسام الدين أبى الهيجاء السمين، ففتك به وبمن هناك من المقطعين فغارت حمية أخيه وثارت للثأر وساعده أخو السلطان سيف الدين وعز الدين موسك ابن خاله، وعدة من أمرائه ورجاله وجاءوا إلى مدينة طود فاحتمت عليهم، فأسرعت البلية إليها وبها وقعت وأتى السيف على أهلها، وباءت بعد عزها بذلها. ثم قصد الكنز وهو فى طغيانه وعدوانه وسوئه وسودانه، فسفك دمه، وظهر بعد ظهور وجوده عدمه، وارتقب دماء سوده، وهجم غابه على أسوده، ولم يبق للدولة بعد كنزها كنز. وطل دمه ولم ينتطح فيه عنز. وارتدع المارقون فما رقوا بعد سلم نفاق، والله لناصرى دينه ناصر وواق"[3].

---

(١) ، (٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٥٦٠، ٥٦٩ راجع تفاصيل هذه الفتن فى السلوك للمقريزى جـ ١ ص ٥٣ . ٥٤ والنكت العصرية ص ٣٩٦.

(٣) كتاب الروضتين، جـ ١، ص ٦٠١، راجع تفاصيل ثورة الكنز فى : الكامل فى التاريخ لابن الأثير جـ ١١. ص ٤١٤، السلوك المقريزى، جـ ١ ص ٥٧.

obeikandl.com

العدوان الصليبى(١)

يصور أدب المعارك الصليبية البعد الثالث فى شخصية مصر السياسية ولئن بدأت هذه المعارك خارج الحدود المصرية، لكنها سرعان ما انتقلت إليها، وانتقصت من أطرافها باحتلال بيت القدس سنة ٤٩٢هـ الذى أسس فيه الصليبيون مملكتهم الأولى فى أنطاكية سنة ٤٩١ هـ - ١١٩٨م. وكانت القدس فى حمى السلطة المصرية.

ومن خلال تصوير الأدب العربى لهذا الجانب من جوانب الشخصية المصرية تبدو معالمها واضحة فى طبيعتها النضالية، وأسلوب مقاومتها، ومفهوم القومية فى الطابع المصرى ودور البيئة الطبيعية كأداة حربية فى أيدى المصريين، ومدى الترابط الاجتماعى فى البيئة المصرية لاسيما أثناء الشدائد والحروب وقوة الاقتصاد المصرى فى تحمل الإنفاق العسكرى الطويل الأمد، وعديد من الملامح والسمات تلوح من خلال تطور المعارك وتصوير الأدب العربى لها.

الطبيعة الحربية

لم يمثل المصريون عنصرا فعالاً فى الجيوش النظامية التى حاربت الصليبيين إذ اعتمد تنظيم الجيش الفاطمى - غالبا- على الجند المرتزقة وارتبط تنظيمه فى العصر الأيوبى بنظام الإقطاع الذى أشرت إليه سلفا(٢) ومن هنا لم يشارك المصريون مشاركة إيجابية فى المعارك التى دارت خارج مصر، وإن ساهم بعضهم فيها كمتطوعين للجهاد. وغالبا ما كانت تسند إليهم أعمال ثانوية فى خدمة الجيش، وهذا ماعكسه الأدب فى نتائج المعارك الصليبية الأولى التى انتقل فيها جيش مصر الى الشام ليدافع عن بيت القدس ويوقف الزحف الصليبى المتقدم إلى مصر. وحاولت القيادة المصرية متمثلة فى الوزير الأفضل بن بدر الجمالى أن تتجنب الحرب وتسلك طريق المفاوضات السلمية، وهيهات أن يستجيب التخطيط الصليبى لهذا الأسلوب العاجز، فلم يجد "الأفضل" بدا من خوض القتال ورجع بفلوله المتقهقرة الى مصر. ويأتى دور الأدباء

---

(١) Croisade La Grand Encypédie, Page 441, p, 13,

(٢) راجع هذا الكتاب ص ٨٤ ، كتاب السلوك للمقريزى ، ص ٢٨١ .

المصريين فى تخفيف الصدمة والاستبشار بالنصر القريب فالمعارك جولات والعود أحمد :

العُودُ أحمدُ والأيـام ضامنـةٌ عُقْبَى النجاحِ ووعدُ اللهِ ينْتَظرُ

وربَّما ساءتِ الأقدارُ ثـم جـرتْ بما يَسُرُّك ساعاتٌ لها آخـرُ(١)

ويفلح الأدب فى شحذ العزائم المصرية بالقدر الذى أعانتها ظروفها الداخلية على ذلك، وتعود إلى ميدان القتال فى جيوش نظامية وتحارب خارج التراب المصرى فتنتصر حينا وتهزم أحيانا كما حدث فى موقعتى قيسارية والرملة سنة ١١٠١م، وموقعتى جبيل وعكا سنة ١١٠٤م وموقعة طرابلس سنة ١١٠٩م وموقعتى بيروت وصيدا سنة ١١١٠م(٢).

ويتلمس الأدباء بوادر النصر العسكرى فيجعلون منها ترانيم يستقبلون بها الجيش العائد منتصرا حتى يصابر، ويعد العدة لمعركة فاصلة. فهذا الشاعر "شرف الدولة جبر الإسكندرى" يهنىء الوزير "طلائع بن رزيك" بنصر حققه على الصليبيين :

أطفا ابنُ رُزِّيك لهيـبَ ضَرامـه والبيضُ تخطبُ فى الرُّوس فتُسمعُ

وكتائـبٌ للشِّـركِ كنـتَ إزاءهـا متعرِّضاً فانـفضَّ ذاك المجـمعُ

ولكم صرعتَ من الفرنجِ سُمَيْدعا بلقائه لك قيل : أنتَ سُمَيْـدَعُ(٣)

ويتهلل وجه الشعر المصرى بمقتل البرنـس "أرناط" وحمـل هامـته على رمح من رماح المسلمين فى إحدى الحملات التى قادتها مصر سنة ٥٥٣ هـ.

قُتِلَ البرنسُ ومن عَسَاه أعانَـه لمَّا عتـا فى البَغْـى والعُـدوانِ

وأرى البريَّـة حـينَ عـادَ برأسهِ مرَّ الجنى يبدُو عـلى المـرَّانِ

---

(١) خريدة القصر وجريدة العصر "قسم شعراء المغرب" للعماد الأصفهانى، تحقيق محمد المرزوقى وآخرين، تونس، ١٩٦٦ م.

(٢) الجيش المصرى فى العصر الإسلامى من الفتح العربى إلى معركة المنصورة، د. عبد الرحمن زكى. ص ٤٦، القاهرة ١٩٧٠.

(٣) الخريدة، جـ ٢، ص ٢٣٢.

(٤) الخريدة، جـ ١، ص ٢١٢ .

وتعجبوا مـن زرقـةٍ فـى طرفـه وكأنَّ فوقَ الرُّمحْ نِصـلاً ثانـى(١)

والزحف الصليبى يقترب من مصر ليحتل العريش وتنطلق الشوانى المصرية لتغير على أسطول الفرنج فى غزة والعريش وتحقق بعض الانتصار :

وقُتلتَ فى يومِ العريـشِ عُروشَـهم بشبا ضرابٍ صادقٍ وطعـانِ

ألجأتُهم للبحـرِ لمـا أنْ جـرى منه ومن دمِهم معـاً بحْـرانِ

ولقدْ أتى الأسطولُ حين غزا بمـا لمْ يأتِ فى حينٍ من الأحيـان

أحبِب إلىَّ بها شوانى أصبَحتْ من فتكِها ولها العداةُ شوانى(٢)

حملة الفرنج على دمياط سنة ٥٦٥ هـ

وحتى ذلك الحين لم تنصهر الشخصية المصرية فى بوتقة القتال لتبين عن خصائصها القتالية، ويتاح لها ذلك من خلال الحملات الصليبية التى نزلت بأرض مصر والتحمت بالقوى الشعبية المصرية التى صالت وجالت وأسفرت عن وجهها الحقيقى. وقد بدأت الحملات بنزول الفرنج على مدينة دمياط سنة ٥٦٥ هـ، واحتكت بالمقاومة المصرية، وكانت مقاومة صلبة، وجاء الفرنج فى عدد كثير، وعدة كثيفة لكنها ارتدت على أعقابها مدحورة :

ولما أتـوا . دمـياطَ كالبحـرِ طامـيا وليسَ له منْ كَثْرةِ القومِ ساحـلُ

يزيدُ عن الإحصـاءِ والعـدُّ جمعُـهم ألوفٌ ألوفٍ خيلُـهم والرَّواجِـلُ

رأوا دُونهـم أُسْدا، بأيديهـم القـنا وبيضٌ رقاقٌ أحكمَتْها الصياقلُ

وداروا بها فـى البحرِ مـن كلّ جانـبٍ ومنْ دُونِها سدٌّ من الموْتِ حائـلُ

رجا الكلبُ، ملك الرُّوم إذْ ذاك فتحَـها فَخاف، فـأمُّ الملـكِ والروم هابلُ

فعادُوا على الأعقابِ منـها هزيمـةً كأنهم - ذلا - نعـامٌ جوافِـلُ(٣)

(١) الخريدة ، جـ ١ ، ص ٢١٢ .

(٢) فى أدب مصر الفاطمية، د. محمد كامل حسين، ص ٢٦٩.

(٣) كتاب الروضتين، جـ ١ ، ص ٤٦١.

ويزف عمارة اليمنى تهانيه لمصر والمصريين بجلاء الصليبيين عن دمياط ويشكر أنعم ربه على هذا النصر، ويشيد بفضل أيوب حكام البلاد :

مَنْ شاكرٌ : واللـهُ أعظـمُ شاكـرٍ ... ما كان من نُعْمى بنى أيـوبِ

جلبوا إلى دمياطَ عند حصارِهـم ... عزَّ القـوىِّ وذلَّـةَ المغلـوبِ

وجَلَوْا عـن الإسـلامِ فيـها كربـةً ... لو لم يُجَلُوها أتتْ بكروبِ(١)

ويخاطب العماد الأصفهانى صلاح الدين مشيدا بدوره فى رعاية دمياط واصفا ماحلَّ بالفرنج من الحسرة والندم على قدومهم إليها فمطرانها أمطره صلاح الدين وابلامن العذاب، وأسقفها تهدمت على رأسه السقوف، وتكسرت الصلبان ونكست الأعلام :

وحُطْـتَ دمياطَ إذْ أحـاط بـها ... من بِرُجُـوم البـلاءِ يقْـذِفُها

لاقـتْ غـواةُ الفرنـجِ خيبتَـها ... فزادَ مـنْ حسرةٍ تأسُّفُـها

فـر "فريـدٌ يـها" وأزعجَـها ... نـداءُ "داويـها" تلهُفُـها

يعطرُ مطرانُـها العـذابَ كـما ... يَرْدَى بـهدّ السقوف أسقُفُـها

تكـسرُ صلبانهـا وتنكُسُـها ... لفصـم أصلابِها وتقصِـفُها(٢)

حملة الصليبيين على الإسكندرية سنة ٥٦٩ هـ :

وأدرك الصليبيون الخطر الذى يتهددهم فى استقرار شئون مصر الداخلية، فقد ذاقت ويلاتهم والإحن الداخلية تمزقهم، أما وقد لاحت بشائر الاستقرار بدخول الناصر صلاح الدين مصر وتوليه منصب وزارتها، فعادوا إلى مهاجمة مصر من جديد، يختبرون مواقع أخرى غير دمياط التى هزموا فيها من قبل، واختاروا الإسكندرية ميدانا لتجربتهم الجديدة وحاولوا اقتحامها سنة ٥٦٩ هـ وصدتهم المقاومة الشعبية. ثم أقلعوا فى الرسو على البر وأنزلوا عددا

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٦٠ .

(٢) الخريدة ، جـ ١ ، ص ١١ ، ١٢.

ضخما من الرجال والعتاد. ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية ماراعهم ودام القتال يومين، وفى اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب، وكثر الصياح من كل الجهات فارتاع الفرنج واشتد القتال فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها هذا النصر المؤزر تصنعه أيدى المقاومة المصرية وما أعنفها عندما يغزوها الدخيل، ولما وصل صلاح الدين بعساكره كانت جموع المصريين قد أجهزت على العدو وكفى الله المسلمين شرهم وحاق بالكافرين مكرهم(١).

ويسجل القاضى الفاضل فى إحدى رسائله أنباء هذه الحملة، ويحلل الدوافع التى جعلت مدبرها صاحب صقلية يفكر فيها والنهاية التى آلت إليها حملته. فيقول :

"ومن هؤلاء الكفار صاحب صقلية هذا، وكان حين علم أن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا فى نوبة دمياط، فغلبا وهز ما وكسرا، وأراد أن يظهر قوته المستقلة بمفردها. وعزمته القائمة بمجردها فعمر أسطولا استوعب فيه ماله وزمانه : فإنه إلى الآن منذ خمس سنين يكثر عدته، ويجتلب مقاتلته إلى أن وصل منها فى السنة الحالية إلى الإسكندرية أمر رائع وخطب هائل، وما أثقل ظهر البحر مثل حمله، ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله، ماهو إقليم بل أقاليم نقله، وجيش مااحتفل ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله ولو ذهبنا نصف مانهب فيه من ذهب، وما أخذمنه من سلاح وخيل وعدد ومجانيق، ومن أسر منه من خيالة كبار ومقدمين ذوى أقدار وملوك يقاطعون بالجمال التى لها مقدار، وكيف أخذه وهو فى العدد الأكثر بالعدد الأقل من رجالنا، وكيف نصر الله مع الأصعب من قتاله بالأسهل من قتالنا، لعلم أن عناية الله بالإسلام تغنيه عن السلاح، وكفاية الله لهذا الدين تكفيه مؤنة الكفاح(٢).

حملة الصليبيين الثانية على دمياط سنة ٦١٥ هـ :

ويبدو أن الصليبيين لم يتحققوا بعد من طبيعة القتال المصرية، وفى الوقت نفسه أدركوا جيدا خطر وثبة مصر الداخلية ، ومايمكن أن تؤثره فى مجرى الأحداث السياسية والعسكرية

---

(١) الكامل فى التاريخ ، لابن الأثير، جـ ١١ ، ص ١١ ، ٢١٤.

(٢) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، جمال الدين بن واصل، تحقيق د. جمال الدين الشيال جـ ٣، ص ٢٩٦

فاستماتوا فى الوصول إليها وتحطيمها قبل أن تقضى عليهم مهما كان الثمن غاليا وقد ذاقوا مرارة الهزيمة التى حلت بهم بعد نكبتهم فى "حطين" وماتلاها من انتصارات إسلامية متلاحقة. فجاءوا إلى دمياط من جديد سنة ٦١٥ هـ يدفعهم الثأر القديم ويغريهم الجمع الحاشد من الرجال والعدة وحاصروا دمياط وضيقوا الحصار ومنعوا الأقوات وهنا تجلت الروح المصرية فى نضالها. لقد قاومت دمياط مقاومة عنيفة ولم تمكن الصليبيين من دخولها برغم حصارها الشديد، وكانت تبعث بنداءاتها الفتية إلى حكام مصر وكان على رأسها الملك الكامل الأيوبى تحثه النجدة والأخذ بالثأر، وتحمله المسئولية الكاملة فى حماية الإسلام الذى لايقبل له عذرا فى الإهمال أو التقصير :

يامَالِكى دُمْيـاطَ ثَغْـرَ هُدِّمـت ... شُرَفاتُه كادتْ تجـثُّ أصـولُه

وسؤالُه فى أن تجيـبَ دعـاءه ... دينُ الإلهِ وخلـقُـه ورسولُـه

فالعُذر فى نصـرِ الإلـهِ ودينِـه ... ماسـاغ عندَ المسلمـين قبولُه

والثـغْرُ ناظـرُه إلـيك محَـدِّقٌ ... ما إنْ يملُّ من الدُّموعِ هـمولُه

ولئن قعـدتَ عنْ القـيامِ بنصـرِه ... جفَّتْ نضارتُـه وبـانَ ذبـولُه

ووهتْ قوى القرآنِ فيه ورفعـتْ ... صلبانُـه وتُلِى بـه إنجـيلُه

وعلا صدى الناقوسِ فى أرجائِه ... وخفى على سمعِ الورى تهليلُه

هذا وحقُّك وصفُ صورةِ حـالِه ... حقاً وجملُته وذا تفصـيلُه(١)

ويعود الملك الكامل إلى المقاومة الشعبية يلبى بها استصراخ المقاومين من داخل الحصار ويأمر أهل القاهرة ومصر بالنفير للجهاد(٢). والعدو مازال يشدد حصاره حتى أنهك قوة المعتصمين فتسلق سورها واحتلها فى شعبان سنة ٦١٦ هـ ووضع السيف فى من بقى من المسلمين وندب السلطان الناس وفرقهم فى الأرض فخرجوا إلى الآفاق يستصرخون المسلمين

---

(١) السلوك للمقريزى، جـ ١، ص ١٩٩.

(٢) المرجع السابق جـ ١، ص ٢٠٠.

لإنقاذ مصر من أيدى الفرنج. وقد عقد الفرنج العزم على المضى لاحتلال القاهرة ومصر، وتشتد الأزمة فالمدد الصليبى يتوافد وكان الصليبيين صمموا فى هذه المرة أن يقتصوا لأنفسهم وينهكوا مصدر القوة الإسلامية الكامن فى مصر ولاسيما وقد بدأ الهجوم التترى يتوغل فى بلاد المسلمين فى المشرق، فبينما الصليبيون يضيقون الحصار على دمياط سنة ٦١٧ هـ استولى التتار على سمرقند وملكوا الرى وهمذان وقزوين وفرغانة وخوارزم وخراسان ومرو ونيسابور وهراة وغزنة(١).

ويثور الشاعر "ابن النبيه المصرى" ويصب غضبه على ملوك الإسلام ويتهمهم بالتخاذل فى نجدة المقاومة المصرية الباسلة التى تجرعت مرارة الجلد والصمود فى حرب الصليبيين :

ياملـوكَ الإسـلامِ عنهـم قعدتُـم ... كقعـودِ الكـفَّارِ فى يومِ بدرِ

وجيوشُ الفرنجِ فـى ثغـرِ دميـا ... طَ يساقونهـم بكأسٍ مُـرٍّ(٢)

وينقضى عامان والحصار مستمر والإمدادات تتواصل ويحتشد العامة من الشعب المصرى والملك الكامل يستنجد بإخوته، والأمراء الأيوبيون من بلاد الشام يتوافدون عليهم وكانت العامة تكر على الفرنج أكثر مما يكر عليهم العسكر(٣).

وتبرز هذه الأزمة العنيفة أهمية الموقع المصرى ودور بيئتها الجغرافية فى تشكيل الحياة السياسية ومن بينها المعارك وطبيعة المصرى فى مقاومته وعناده من خلال المفاوضات التى دارت بين ملوك بنى أيوب والفرنج إذ رضى الأمراء الأيوبيون أن يتخلوا عن جميع ما أخذه صلاح الدين بسيفه من بلاد الساحل ماخلا الكرك والشوبك للصليبيين فى مقابل خروجهم من مصر(٤). إدراكًا من الأيوبين بالخطر الذى سوف يحيط بهم جميعا لو تم للصليبيين ملك مصر، ولهذا الأمر نفسه رفض الصليبيون ذلك العرض وبدا لهم ملك مصر أمرا يسيرا.

---

(١) السلوك للمقريزى ، جـ ١ ، ص ٢٠٥.

(٢) ديوان ابن النبيه المصرى . تحقيق عمر محمد الأسعد ، ص ٣٣٥، الطبعة الأولى دمشق، دار الفكر ١٩٦٨م.

(٣) راجع تفاصيل هذه الحملة فى كتاب مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك د. سعيد عبد الفتاح عاشور بيروت ١٩٧٢، ص ١١٢ ومابعدها.

(٤) الكامل فى التاريخ لابن الأثير : ـ ١٢، ص ٣٢٨ ، ط بيروت ١٩٦٦ م.

ويقاتل الشعب المصرى ويظل مثابرا أكثر من ثلاثة أعوام فى معارك الاستنزاف ولاييأس من النصر، ويرسل الله جنوده طوفانا مع تدفق فيضان النيل. حينما تعبر جماعة من المسلمين بحر المحلة إلى الأرض التى عليها معسكر الفرنج ويفتحون مكان عظيما فى النيل فلم يشعر الفرنج إلا والأرض تسيخ من حولهم وحوصروا بين أرض أصابها الغرق وجموع حاشدة من المسلمين تعاورت نبالهم جنود الصليبيين فآثروا الفرار دون طمع فى شبر من مصر أو الشام. وراح الشعر يتغنى بهذا النصر "فشرف الدين بن عنين" يبعث بهذه التهنئة :

سلُوا صهواتِ الخيلِ يومَ الوَغى عنّا ... إذا جُهلتْ آياتُنا والقنا اللدْنا

غداةَ التقينا دونَ دمياط جحْفلاً ... من الرُّوم لايُحْصَى يقينا ولا ظنّا

قدْ اجتمعُوا رأياً ودِيناً وهمّةً ... وعزماً وإنْ كانُوا قدْ اخْتَلفُوا سُنّا

تداعَوْا بأنصارِ الصليبِ وأقبلتْ ... جموعٌ كأنَّ الموجَ كانَ لهُم سفنا

وأطمعهُم فينا غرورٌ فأرقلوا ... إلينا سِراعا بالجَهاد وأرقلنا

سقيناهم كأسا نفتْ عنهُم الكرى ... وكيف ينامُ اللّيلَ مَنْ عُدِمَ الأمنا

سرَى نحوَ دمياط بكل سَمَيْدعٍ ... إمامٌ يرى حُسْنَ الثّنا المغنم الأسنى(١)

ويحس « ابن النبيه المصرى » بحلاوة النصر وكان بالأمس غاضبا ساخطا منكرا تقاعس ملوك الإسلام ، ولكنه عاد يترنم بلذة الانتصار :

يايَومَ دمياط ما أبقيتَ من شرفٍ ... لمن تقدَّم إلا أنتَ هادِمُهُ

عذراءَ نادتْ على بعدٍ فأنقذها ... ملكٌ غيورٌ مصُونَاتٌ كرائمُهُ

ودونَ دمياطِ بحرٌ حالَ بينهما ... من الظبى ليس ينجو منه عائمُهُ

صاحُوا الأمانَ فلاسيفٌ نضتْه يد ... منهم ولاحملتْ طرفا قوائمُهُ

ذلوا لملكٍ أعزَّ اللهُ صاحبَه ... موسى سليمانُه والسيفُ خاتمُهُ

---

(١) السلوك للمقريزى ، جـ ١ ، ٢١١ .

وسلّموهـا وربُّوا أهلَـها ومضـوا ... والثغر من فـرحٍ يفترُّ باسمـهُ

كأنّهم أبصرُوا ما قدْ مضَـى زمنا ... كمـا رأى مدّعِيّ الأحلام نائمُهُ

طَهُرتْ محرابُها العالـي ومنبـرها ... من رجسِهم بعدما ضاقتْ بنوعِهُ

وقمتَ تكسرُ تمـثال المسيحِ بـه ... بالرُّغـم من هوبالاهـوت لابسُهُ

أشبـهت جدَّك إبراهيـمَ واتّفقتْ ... على عزائمِك العليا عزائمُـه(١)

حملة الصليبيين الثالثة على دمياط سنة ٦٤٧ هـ : (*)

وبالرغم مما حل بالصليبيين من هزائم متكررة فى دمياط فما زال أملهم يتجدد لأن الصيد سمين والغاية شديدة الحساسية. فما هى إلا سنوات قليلة مضت على هزيمتهم فى دمياط سنة ٦١٨ هـ حتى عادوا إليها من جديد للمرة الثالثة سنة ٦٤٧ هـ بجموع عظيمة يقودها لويس التاسع ملك فرنسا فقد انضم إليهم فرنج الساحل كله وبعث ملك الفرنج إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب كتابا يتهدده فيه ويطلب إليه التسليم ويقول فيه :

"أما بعد فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية، كما أنى أقول إنك أمين الأمة المحمدية. وإنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستثير البنات والصبيان ونخلى منهم الديار. وقد أبديت لك مافيه الكفاية، بذلت النصح الى النهاية، فلو حلفت لى بكل الأيمان، ودخلت على القسوس والرهبان، وحملت قدامى الشمعة طاعة للصلبان ماردنى ذلك عن الوصول إليك وقتالك فى أعز البقاع عليك. فإن كانت البلاد لى فيا هدية حصلت فى يدى، وان كانت البلاد لك والغلبة على، بيدك العليا ممتدة الى. وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى، تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون اليك بأسياف القضاء.

فلما وصل الكتاب إلى السلطان كان رده :

(*) انظر تفاصيل هذه الحملة وآثارها فى الأدب، أدب الحروب الصليبية.
د. عبد اللطيف حمزة، ص ١٤٨ وما بعدها القاهرة ١٩٤٩.

(١) ديوان "ابن النبيه المصرى" ص ٤٥٦ .

حابه وصل كتابك، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك. فنحن أرباب
ا قتل منا قرن إلا جدناه ولا فى علينا باغ إلا دمرناه، فلو رأت عيناك أيها المغرور
حد منكم الحصون والسواحل، وإخرابنا منكم ديار الأواخر
سيوفنا وعظم حروبنا على أنامك بالندم ولابد أن تذل بك القدم فى يوم أوله لنا وآخره
والأوائل، لكان لك بك الظنون، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون". فإذا قرأت كتابى
عليك. فـ على أول سورة النحل "أتى أمر الله فلا تستعجلوه"، وكن على آخر سورة « ص »
من نبأه بعد حين ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى. وهو أصدق القائلين :"كم من فئة قليلة
غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين". وإلى قول الحكماء : إن الباغى له مصرع. وبغيك
يصرعك وإلى البلاء يقلبك، والسلام منى إليك(١).

ونزلت الفرنج فى البر الغربى لدمياط وكان بها الجيش النظامى فناوش الأعداء يوما ثم ترك الميدان واتجه الى البر الشرقى وفيه مدينة دمياط، ولما شاهد الناس فرار العسكر تركوها واتجهوا صوب بلدان الدلتا فدخل الأعداء دمياط سالمين، وقد فزع شعبها وهاج على وجهه مغادرا أرضه وديارة. وكان بدمياط مجموعة من الفرسان هربت مع الهاربين فأعدمهم السلطان جزاءً وفاقا لما اقترفوه فى حق المواطنين، وكان قد استفتى فى شأنهم العلماء فأفتوا بقتلهم. وتقدم السلطان بعسكره نحو المنصورة وتوافدت عليه جموع المجاهدين من عوام الناس وبدأ الشعب المصرى يمارس تجربة حرب الاستنزاف فوق أرضه مستخدما كل وسائل البيئة الطبيعية (*) فى قتاله(٢).

ولما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب طمعت الفرنج فى التقدم لاحتلال البلاد ولكن أزقة المنصورة كانت مقبرة عظيمة لهم، فقد حاربهم المصريون جيشا وشعبا من حارة إلى حارة ومن دار إلى دار. والتجأ الملك "ريدا فرنس" – وعدة من أكابر قومه – إلى تل المنية وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشى جمال الدين محسن الصالحى، ونزلوا على أمانه وأخذوا إلى المنصورة، فقيد

---

(١) ، (٢) كتاب السلوك للمقريزى، جـ ١ ، ص ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٥٦ .

* استخدم المصريون حيلهم الفكهة فى المعارك، فكان أحدهم ينزل إلى النيل وقد أخفى رأسه فى بطيخه وأخذ يسبح، فظنه أحد الأعداء بطيخة حقيقية واقترب منها ليأخذها، فاقتنصه المصرى ورجع به إلى عسكر المسلمين.

(٣) كتاب السلوك للمقريزى، جـ ١ ، ص ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٥٦ .

الملك بقيد من حديد، واعتقل في دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان – كاتب ديوان الإنشاء – ووكل بحفظه الطواشي صبيح المعظمي[٣]. ثم أفرج عن الأسرى بعد دفعهم الدية ورحلوا عن مصر يودعهم الصاحب جمال الدين بن مطروح بقوله :

قل للفرنسيسَ إذا جئتَه ... مقالَ نُصْحٍ من قَولٍ فَصيحْ

أجَرك اللهُ على ما جرى ... من قتلِ عُباد يسوعِ المسيحْ

أتيتَ مصراً تبتغي مُلكها ... تحسبُ أنَّ الزُّمرَ ياطبلُ ريحْ

فساقَك الحينُ إلى أدهمٍ ... ضاقَ بِه عن ناظريْك الفسيحْ

وكلُّ أصحابِك أوْدَعْتَهم ... بحسنِ تدبيرك بطنَ الضَّريحْ

سبعونَ ألفاً لايُرى منهم ... إلا قتيلٌ أو أسيرٌ جريحْ

ألهَمك اللهُ إلى مثلها ... لعلَّ عيسى منكُم يستَريحْ

إنْ لَمْ يكُن البابُ بذا راضياً ... فربَّ غشٍ قَدْ أتَى من نصيحْ

فاتخذوه كاهناً إنَّه ... أنصحُ منْ شقٍ لكمْ أوْ سطيحْ

وقلْ لهُم إنْ أزْمعُوا عودةً ... لأخذِ ثأرٍ أو لفعلٍ قبيحْ

دارُ ابن لقمانَ على حالِها ... والقيدُ باقٍ والطواشي صَبيحْ[١]

وقد بعث توران شاه رسالة من مصر إلى الأمير جمال الدين بن يغمور يصور هذه الحملة ويبشر بنصر المسلمين قائلا :

"الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، وما النصر إلا من عند الله، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، وأما بنعمة ربك فحدث، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها". نبشر المجلس السامي الجمالي بل نبشر المسلمين كافة، بما مَنَّ الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين . فإنه كان قد استفحل أمره واستحكم شره، ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد، فنودوا : لاتيأسوا من روح الله. ولما كان يوم الإثنين مستهل السنة المباركة تمم الله على الإسلام بركتها، فتحنا

(١) كتاب السلوك ، للمقريزي ، جـ ١ ، ص ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

الخزائن وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح، وجمعنا العربان والمطوعة وخلقا لا يعلمهم إلا الله، فجاءوا من كل فج عميق ومكان سحيق. فلما كان ليلة الأربعاء ترك الأعداء خيامهم وأموالهم وأثقالهم، وقصدوا دمياط هاربين. ومازال السيف يعمل فى أدبارهم عامة الليل وحل بهم الخزى والويل. وقتلنا منهم ثلاثين ألفا غير من ألقى بنفسه فى اللجج وأما الأسرى فحدث عن البحر ولاحرج. والتجأ الفرنسيس إلى المنية، وطلب الأمان، فأمناه وأخذناه وأكرمناه، وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته وجلاله وعظمته"(١).

واتفق أن الفرنسيس بعد خلاصه من أيدى المصريين عزم على الرحيل إلى تونس فهدده أحمد بن إسماعيل الزيات قائلا :

يافرنسيسُ هـذهِ أختُ مـصرَ ... فتأهـبْ لما إليـه تصـيرُ

لكَ فيـها دارُ ابنِ لـقمانَ قبـراً ... وطواشـيك منـكر ونكيرُ(٢)

التبعات الاقتصادية والدينية :

عبرت الشخصية المصرية عن بعض خصائصها من خلال المعارك الصليبية فى ظاهرة التماسك الاقتصادى الذى ينبع من سمتين : أولاهما ثراء البيئة الطبيعية، وثانيهما تلاحم الشعب وترابط الجبهة الداخلية. وقد تمكنت بهاتين الطاقتين أن تقف درعا تكسرت عليه أمواج الحملات الصليبية لا فى مصر فحسب بل وفى الشام أيضا، فطالما أمدته مصر بالمال وأنواع الثياب المصرية والجياد العربية(٣). وناشدته أن يحذو حذوها فى قتال الأعداء. "فالصالح طلائع بن رزيك" يحث "أسامة بن منقذ" على الجهاد ويقول :

تأمَّلْ فكم شرطٍ شرطتُ عليْهم ... قديماً، وكمْ غدرٍ به نُقِضَ الشَّرطُ

---

(١) ، (٢) كتاب السلوك ، للمقريزى ، جـ ١ ، ص ٤٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٥.

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٩٨ .

(٤) كتاب الروضتين، جـ ١ ، ص ٣٠٢ .

وشَمِّر فإنَّا قدْ أعنَّا بكلِ مـــا سألتَ، وجَهَّزْنا الجيوشَ ولم يبطوا(١)

وكما قدمت مصر معونتها الاقتصادية لجيوش نور الدين، فإن المعركة الفاصلة التى قادها صلاح الدين فى حطين تحملت مصر أعباءها بتقديم العتاد والمؤونة وكانت جيوش صلاح الدين تهاجم من الشام لقربها وتأتيها الميرة من بلد النيل الخصيب.

يصور العماد الأصفهانى تتابع المدد المصرى بقوله :

"جاءت كالفتح بالفلك المواخر، وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجا وأفواج تزاحم أفواجا تدب على البحر عقاربها وتجف كقطع الليل سحائبها والحاجب لؤلؤ مقدمها ومقدامها وضرغام غايتها وهمامها فطفق يكسر ويسل ويسلب، ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه ويقف له فى جزائر البحر على مذاهبه (٢).

ويقول المقريزى : "خرج لؤلؤ على الأسطول من مصر والتقى مع السلطان على القريتين وعاد إلى الكرك فنازلاها، وضايق (السلطان) أهلها ثم رحل عنها ونازل طبرية، فاجتمع من الفرنج نحو الخمسين ألفا بأرض عكا، رفعوا صليب الصلبوت، فافتتح السلطان، (طبرية) عنوة وغاظ ذلك الفرنج وتجمعوا، فسار إليهم السلطان، وكانت موقعة حطين التى نصر الله فيها دينه، وانهزم الفرنج بعد عدة وقائع وأخذ المسلمون صليب الصلبوت، وأسروا صاحب الكرك والشوبك، وعدة ملوك آخرين، وقتل وأسر من سائر الفرنج مالا يعد كثرة (٣)

وراح الشاعر المصرى "محمد بن أسعد النشابة" يعبر عن فرحة مصر بهذا النصر :

أتُرى مناماً ما بعيْـنى أبْصِـرُ القدسُ يُفْتَـحُ والفرنجـةُ تُكْـسَرُ
وقمامةٌ قُمَّتْ مَن الرجسِ الذى بزوالِـــهِ وزوالُـــها يتطـــيَّرُ
ومليكُهم فى القيدِ مصفـودٌ ولـم يَر قبـــلَ ذاك لهـم مليـكٌ يؤسـرُ
قدْ جاءَ نصرُ اللهِ والفـتحُ الـذى وُعِدَ الرسولُ فسبِّحوا و استغفروا

---

(١) كتاب الروضتين جـ ١ ص ٣٠٣ .
(٢) أدب الدول المتتابعة من عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك . د. عمر موسى باشا، لبنان، ١٩٦٧ .
(٣) كتاب السلوك المقريزى، جـ ١ ، ص ٩٣ .

فَتَح الشآم وطهَّر القـدسَ الـذى هو فى القيامـةِ للأنـامِ المحـشرُ

مـن كان هـذا فتحُـه لمحمـدٍ ماذا يقالُ لـه ومـاذا يُذكـرُ ؟ (١)

وقد تحملت مصر تبعات الذود عن المقدسات الإسلامية لا فى مصر وحدها ولا فى القدس بل وفى مكة والمدينة ، فقد أدى فشل الصليبيين إلى استفزازهم شعور المسلمين فنزلوا بقطع من أسطولهم على الشواطىء الحجازية سنة ٥٧٨ هـ، وركبوا جادين السير إلى بلوغ مدينة الرسول (ص) (٢) ولم يكن بينهم وبينها سوى مسيرة يوم واحد حتى لحقت بهم قوة مصرية يقودها الحاجب لؤلؤ، الذى ركب السبيلين براً وبحراً، وامتطى السابقين مركبا وظهرا، وخطا فأوسع الخطو، وغزا فأنجح الغزو، وحبذا العنان الذى فى هذه الغزوة أطلق، والمال الذى فى هذه الكرة أنفق.

وهؤلاء الأسارى، فقد ظهروا على عورة الإسلام وكشفوها وتطرقوا بلاد القبلة وتطوقوها، ولو جرى فى ذلك سبب – والعياذ بالله – لضاقت الأعذار الى الله والخلق وانطلقت بالمذبة فى الغرب والشرق(٣).

---

(١) كتاب الروضتين، لأبى شامة ج ، جـ ٢ ، ص ١٠٥ .

(٢) راجع تفاصيل هذه الواقعة فى كتاب "السلوك" للمقريزى ، جـ ١ ، ص ٧٨.

(٣) مفرج الكروب، فى أخبار بنى أيوب، جـ ٢ ، ص ٣١٢ ، ٣١٣.

الفصل الثالث

مشاهد البيئة الاجتماعية

الشخصية قوة معنوية تتجسد فى عمليات التفاعل التى تتم فى وسط اجتماعى، متخذة صورة علاقة أو مظهر من المظاهر الاجتماعية المختلفة. وتستمد هذه المظاهر كيانها من عنصرين هامين هما :

١- التراث المادى والنفسى والاجتماعى.

٢- ماتضفيه أحداث العصر من آثار فى النواحى السياسية والاقتصادية والعمرانية والتقاليد والعادات وغيرها مما يشكل ملامح البيئة فى مختلف نواحيها.

والأدب الاجتماعى يعبر عن الواقع من خلال المشاهد الكائنة فى عصره أو ماينبغى أن يكون، وفى الوقت نفسه يكشف - من خلال ذلك عن الصفات النفسية الكامنة وراء السلوك الجماعى من مظاهر أو علاقات، لأن السلوك الإنسانى لم يكن بمعزل يوما ما عن الدوافع المثيرة والمحركة له من مفاهيم وقيم وأحاسيس.

ومهما يكن من تسلط النزعة الفردية فى سلوكها فإنها تنشأ فى وسط اجتماعى يطبعها بطابعه، وما كان لها أن تحيا لو لم يحتضنها ذلك المجتمع، فهو الذى يربيها وينميها ويعطيها الصبغة الشرعية للحياة فيه.

وقد يختلف الأفراد بل والطوائف الاجتماعية فى إطار المجتمع الواحد اختلافا سلوكيا يعبر عن نزعاتها المتعددة وأمزجتها المتباينة، وقد تتناقض فيما بينها تناقضا شديدا ولكنها فى مجموعها عنوان لمؤثرات عصر من العصور، وصفة لشخصية مجتمع من المجتمعات وقد تكون جميعها صادقة فى اتجاهاتها صدقا يعبر عن اختلاف التأثير الذى تحدثه عوامل البيئة وأحداث العصر على فريق من الناس دون فريق آخر. وسنرى مصداقا لهذه الحقيقة من خلال دراستنا لأبعاد الشخصية الاجتماعية فى الأدبين الفاطمى والأيوبى، فبينما يغرق فريق من

الناس فى العبادة والزهد والتصوف يغرق فريق آخر فى الملذات والتهالك على المتع والشهوات، وكلا الاتجاهين نتاج طبيعى لأحوال الناس فى تلك المرحلة.

وسأطوف فى هذا الجانب من الكتاب بعدة مشاهد من البيئة الاجتماعية من خلال تصوير الأدبين الفاطمى والأيوبى، لنتعرف على الجوانب التالية من جوانب الشخصية المصرية :

١- تكوين المجتمع المصرى (عناصره البشرية، وطوائفه الدينية).

٢- العلاقات الأسرية

٣- مظاهر الحياة العامة.

٤- الأعياد الوطنية والدينية.

٥- مظاهر اللهو والمجون.

٦- مظاهر الزهد والتصوف.

تكوين المجتمع المصرى

العناصر البشرية :

أشرت فيما سبق الى الحقيقة القائلة بأن البيئة المصرية بيئة جذب لاطرد وبيئة هضم وائتلاف لا بيئة تفرقة واختلاف، واستعرضت طوائف من العناصر البشرية التى حلت بالساحة المصرية منذ قديم الزمان، كما أشرت إلى انطباعات الرحالة الذين زاروا مصر خلال القرنين السادس والسابع الهجريين - حول هذه الظاهرة الاجتماعية - من أمثال ابن بطوطة، وابن جبير، وناصر خسرو، وابن فضل الله العمرى، وأبو الصلت أمية الأندلسى، ومن خلال النصوص الأدبية لهذه الفترة يمكننا التعرف على العناصر التالية :

القبط :

مع بداية الحكم الفاطمى أخذت طائفة الأقباط فى مصر مكانة اجتماعية متميزة عما كانت عليه من قبل، فإذا كان بعض الأقباط فى القرن الأول الهجرى حاول أن يلحق نفسه بنسب عربى حتى يتخلص من مظاهر الاضطهاد أو الانتقاص الاجتماعى، كما شهدت بذلك، (قصة الحرس) السالفة الذكر[1]. فإن الأقباط – فى ظل الحكم الفاطمى والأيوبى – قد وصلوا إلى مناصب فى الحكم وشاركوا فى إدارة شئون البلاد المصرية : ففى عهد العزيز بالله الفاطمى زاد بلاط الخليفة فى إكرام النصارى، لانه كان للعزيز أصهار مسيحيون منهم "أرستس" خال السيدة ابنة العزيز بالله، وقد عين "بطريكا" على بيت المقدس، كما عين أخوه "أرمانيوس" مطرانا على القاهرة ومصر، وكان لهما تقدير ومودة عند العزيز جعلت بعض الشعراء يعرض بهذه الحالة فيقول :

تنصَّرْ، فالتَّنصُّرُ دينُ حقٍ ... عليه زمانُنا هذا يدُلُّ

وقلْ بثلاثةٍ عزُّوا وجلُّوا ... وعطلْ ماسواهم فهو عطلُ

فيعقوبُ الوزيرُ أبٌ ، وهذا العزيزُ ابنٌ ، وروحُ القدسِ فضْلُ[2]

ولا أدل على تمتع طائفة الأقباط بحريتهم الكاملة من اعتناق بعضهم الإسلام فى ظل المكانة الاجتماعية الممتازة التى عاشوا فيها خلال القرن السادس الهجرى. "فالخطير بن مماتى" – وهو من أسرة عريقة من أقباط أسيوط شاركت فى إدارة الحكم فى مصر فى أواخر العصر الفاطمى وأوائل العصر الأيوبى، وكانت تتمتع بمكانة عالية – يعلن دخوله الإسلام سنة ٥٧٦ هـ. ويهنئه الشاعر (ابن الدباغ) بهذه المناسبة.

فقُلْ لعواذلى مَهْلاً فقلبى ... له شُغْلٌ به عن كلِّ شُغْلِ

وقُلْ للدَّهر دعْك من امتهانى ... فبالشيِّخ الخطيرِ علقْتُ حبْلى

فللإسلام منْه محلُّ فخرٍ ... يزينُ من مفاخرِه بأفْلِ[3]

---

(١) انظر هذا الكتاب ص ١٢٣

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، جـ ١ ، آدم متز (مترجم)، ص ٩٥.

(٣) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١٣٧ ، ١٣٨.

ولم يجد أحد شعراء ذلك العصر عيبا فى انقطاعه لمديح بعض النصارى الذين كان لهم نصيب من السلطة والحكم، كما فعل الشاعر أبو طاهر إسماعيل المعروف (بابن مكنسة) حين خص بمدائحه (أباملیح) وكان أحد عمال الوزير الفاطمى بدر الجمالى وعندما مات أبو مليح رثاه (ابن منكسة) بقوله :

طُوِيَتْ سماءُ المكْرمـــاتِ وكوِّرتْ شمـــسُ المديـــحِ
ماذا أرجِّى فـى حيـــا تى بعْد مـــوتِ أبى مليـــحِ
ماكانَ بالنُّكْسِ الدنـــى مـــن الرِّجالِ ولا الشُّحيحِ(١)

حقا لقد طالب حكام المسلمين أن يرتدى النصارى مايميزهم من الزى كربط الزنانير على خصورهم، وتعليق الصلبان على صدورهم، ومع ذلك لم يلتزم أقباط مصر بذلك دائما ومهما يكن من أمر فقد استوحى (ابن النبيه) خصائص هذا الزى وبعض شعائر النصارى فى تصويره الكأس التى يهيم بها :

إذَا دقَّ ناقوسُـها بالبـــزَالِ وشـدَّتْ على الخصـرِ زنَّارَهَا
عبدتُ الصليـــبَ لراووقـــها ووافقْتُ فى القولِ خمَّارَهـا(٢)

ومادام للأقباط فى مصر الفاطمية والأيوبية حرية فى شتى مظاهر الحياة وأنشطتها فلاريب أن يتغزل الشاعر الخطير فى غلام قبطى :

يظْلمـنى العاذِلُون فـى رشـا إنْ قيل كالشَّمس كانَ مظلُوما
مُذْ حلَّ رسْم الصليبِ فى يدِه حلَّ بقلـبِى هَواهُ مرسُومـا(٣)

العـرب :

اختلفت مظاهر العصبية العربية فى مصر اختلافا واضحا عما كانت عليه فى الأقطار الأخرى ومن المعروف أن هذه العصبية بلغت أوج حدتها فى العصر العباسى الثانى وتجلت أكثر

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٥ .
(٢) ديوان ابن النبيه المصرى، تحقيق عمر محمد الأسعد ص ٣٥٢ .
(٣) الخريدة ، جـ ١ ، ص ١١٥.

ماتجلت على ألسنة الشعراء بالمشرق وفى أقلام الكتاب بالمغرب.

يقول أستاذنا الدكتور (محمد نبيه حجاب) : ففى بلاد الأندلس كانت رسائل ابن غرسية، ومن تصدى للرد عليه صفحة أليمة من هذا الصراع العنيف الذى دار بين العرب والعجم، وفى المشرق كان الشعراء الأعاجم يرسلونها صيحة مدوية تقرع الآذان وتتيه فخرا بالأصول والفروع فقد كان منهم من يسمو بقومه على البشر ويراجح بهم النجوم(١).

أما فى مصر فقد أخذت شكلا آخر منذ بداية الحكم الفاطمى تتميز بالهدوء وعدم الحدة وكان من الممكن أن تأخذ الطابع العنيف، لكن الفاطميين لم يرغبوا فى إثارتها عصبية عربية حتى لايحدوا من شرعية حكمهم ويقصروها على الجنس العربى فحسب، فقد نسب الفاطميون أنفسهم إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول (ص)، وأرادوا أن يسبغوا على حكمهم طابعا عالمياً لاقوميا، طابعا إسلاميا لاعربيا، حتى لايثيروا بذلك عداء غير العرب من المسلمين.

وربما كانت نزعة التسامح العامة فى مصر الفاطمية سببا من الأسباب التى دفعت حكام مصر الفاطمية إلى عدم إثارة النعرة العربية كما أثارها غيرهم فى أقطار إسلامية أخرى(٢).

ومن هنا أخذت الطائفة العربية تعبر عن وجودها فى مصر من خلال مظهرين فى الأدب هما :

الأول : مدح الخلفاء الفاطميين بنسبهم العربى متمثلا فى فاطمة الزهراء ومن خلال هذا المدح يبثون ماشاء الله من المبادىء الشيعية. كما ذهب إلى ذلك عمارة اليمنى فى مديحه الخليفة العاضد حين جعل من طاعته والولاء له دينا مفروضا على كل مسلم :

ولأوْلِك دينٌ فـى الرّقـابِ وديـــنُ ... وودُّك حصـنٌ فى المعادِ حصـينُ

وحـبُّك مفروضٌ على كلِّ مسـلـمٍ ... يقولُ بحـبِّ المصْطَفَى ويَدِينُ(٣)

وكما فعل تميم بن المعز لدين الله الفاطمى حين مدح الخليفة العزيز بالله بنسبه إلى

---

(١) مظاهر الشعوبية فى الأدب العربى، د. محمد نبيه حجاب، ص ١٢.

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، آدم متز (مترجم).

(٣) ديوان عمارة اليمنى، ص ٣٦٢.

"مضر" جد الرسول الأعلى، وخلع عليه من صفات الحاكم فى نظر الشيعة العديد من الصفات، فالممدوح ليس كغيره من الملوك لأن نفس الإمام الشريفة اللطيفة هى روح قدسية حلت فى جسم كثيف ترابى، وإن هذه النفس اللطيفة تناسب العقل الذى سماه هنا بالعلة الأولى على حسب الاصطلاحات الفلسفية والإسماعيلية - وبما أن العقل هو أول ماخلق الله فهو سابق لخلق الهيولى، ولما كان العقل الأول هو أقرب مبدعات الله إليه سبحانه فكذلك الإمام الذى هو مثل العقل أقرب المخلوقات إلى الله على هذه النسبة، وهو الذى يتصل بالله تعالى، لأن ممثوله العقل الأول متصل بالله تعالى وأن الإمام آية الله من نسل محمد.

ما أنْتَ دونَ ملوكِ العالمينَ سوىَ ... روحٌ من القدسِ فى جسمٍ من البشرِ

نورٌ لطيفٌ تناهىَ فسيكَ جوهرُه ... تناهياً جاز حَد الشَّمسِ والقمرِ

معْنَى من العلّةِ الأُولى التى سبقتْ ... خَلْقَ الهيولى وبسطَ الأرضِ والمدرِ

فأنْتَ باللهِ دونَ الخلقِ متصلٌ ... وأنتَ للهِ فيهِمْ خيرُ مؤتمرِ

وأنْتَ آيتهُ منْ نسلِ مرسلِه ... وأنت خيرتُه الغراءُ من مضرِ(١)

وهكذا يستمر الأمير فى استغلال العقائد الإسماعيلية فى مدح شقيقه العزيز بالله بحيث لانستطيع فهم أشعاره دون التوسل إلى ذلك بتطبيق المثل والمثول ويقول :

فَيَابْنَ الوصىِّ ويابْنَ البتولِ ... ويابْن نبىِّ الهُدى المصطَفى

ويابْنَ المشاعرِ والمرْوَتين ... ويابنَ الحطيمِ ويابن الصَّفا

فهو يصف الإمام بمعان باطنية، فمناسك الحج فى التأويل الباطنى هى محمد (ص) وبما أن الوصى والأئمة يقومون مقام النبى بعد موته فهم يوصفون بصفاته(٢).

الثانى : الغزل بوصف مفاتن المرأة العربية، وقد اتخذ هذا الغزل مظاهر مختلفة فظافر الحداد يستجير بقومه من فتنة العيون العربية فهى وإن بدت ضعيفة لكنها فتاكة تحمل الموت

---

(١) ديوان تميم ، ص ٢٢٤.

(٢) فى أدب مصر الفاطمية ، د. محمد كامل حسين ، ١٧٨.

الموت الزؤام بين هدبيها :

هـــى أســـبابٌ وتُدْعـــى حـــدقاً ... يالَقَـــومِى من عُـــيونِ العـــربْ

فاتـُــق الأضْعَـــفَ منهـــا فلـــقدْ ... نقضـــتْ عاداتِـــها فى الحســـبْ

واحْـــذر الأضْـــعف من أجْفَـــانِها ... فالمنَـــايا بَين تلكَ الهُـــدبْ (١)

وعندما تفتنه امرأة قبطية بجمالها يرى أن هذا ظلم من الهوى فكيف تأسر القبطية وهى فى نظره العنصر الأقل فى المجتمع – قلوب العرب، وينعى باللائمة على الهوى :

أمَا والهَوى لوْ أنَّ أحكـــامَه قسْـــطُ ... لما اجْـتَرأتْ أنْ تمْـلكَ العربَ القبطُ (٢)

الأرمـــن :

فى عام ١٠٧٤م تولى بدر الجمالى عدة مناصب هامة فى مصر، فقد عينه الخليفة المستنصر الفاطمى قائدا عاما للجند، ووزير السيف والقلم، ورئيس القضاة وداعى الدعاة واستعان به فى استقرار الأمن واستتباب النظام الذى اختل فى مصر بسبب الأزمة الاقتصادية المعروفة. فاستخدم الوزير كل وسائل العنف، ونجح فى إخضاع السودان والعرب. وفتك بكثير من الأتراك وكان هذا الوزير من أصل أرمنى (٣) وطبيعى أن يستعين بجنود من بنى جنسه، وأن تتكون جاليات أرمنية بمصر، أشار إليها القاضى الفاضل فى إحدى رسائله إلى الخليفة العباسى مصورا حالة البلاد المصرية عند استيلاء الأيوبيين عليها.

"وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانية موضوعة عنهم الجزية كانت لهم شوكة وشكة وحمية وحمة، ولهم حواش لقصرهم من بين داع تلطف فى الضلال مداخله، وتصيب العقول مخاتله، ومن بين كتاب أقلامهم تفعل أفعال الأسل، وخدام يجمعون إلى سواد الوجه سواد النحل (٤) .

---

(١) ظافر الحداد ، د حسين نصار ، ص ١٤٢ .
(٢) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١٠ .
(٣) سيرة القاهرة ، (مترجم) ، ص ١٤٢
(٤) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ ٣ ص ٢٩٢

ولعل واحدة من هذه الطائفة تلك المرأة التى حدثنا عنها البهاء زهير ولم يفهم من كلامها شيئا، ويبدو أنها كانت تجاوره فى نزل أو أنها كانت ربة هذا النزل . ولكنه لم يستعذب لغتها ولم يفهمها، وراح ينعى لغته العربية :

تُكلمُنى بالأرمنيـــةِ جـــارتى ... أيا جَارَتِى، ما الأرمنيةُ منْ طبْعِـــى
وياجـــارتى لمْ أتِ بيْـتَك رغـــبةً ... ولا أنتِ مـــنْ يُرجَـــى لضـــرٍ ولانفْـــعِ
دعانِى إليكِ اللّيلُ والأيْـــنُ والسُّـــرَى ... فصادفتُ أمراً ضاق من حملِهِ وسْـعِى
كلامُك والـــدولابُ والطبْلُ والرَّحـــى ... فلمْ أدرِ مـــا أشْـكُوه منْ ذَلكِ الجـــمْعِ
كلامُـــك فـــيه وحـــدُه لى كفايـــةٌ ... كأنَّ صخـــوراً منه تقـذفُ فى سـمْعِى
لك اللّـــهُ ما لاقـــيتِ ياعـــربيتِى ... وماذا الذى عوَّضتِ بالبـانِ والجـــزعِ
ســـأدعُو على الجـــردِ الجيادِ، لأنَّهـا ... سرتْ فاتتْ بى وادياغيَر ذِى زرعِ (١) .

التـــرك :

أعانت أوضـاع السياسة الداخلية فى مـصر أواخر الحكم الفـاطمى وقيـام الحـروب الصليبية العنصر التركى فى احتلال الصدارة بين العناصر الجنسية فى المجتمع. وكانت الانتصارات الحربية التى أحرزها هذا العنصر ضد الصليبيين مسرحا للأدباء، "فابن المجاور" يصف الترك بأنهم جنود الله لا يخشون المكاره، يقدمون على الموت بشجاعة، لاينظرون إليه من طرف خفى :

جـاءَتْ جـنودُ اللـــهِ تطلُب ثأرَهـا ... وصـــنُورُها عـــمًّا قـليلٍ تَشْـتَفِى
هـــمْ فتيـــةُ الأتراكِ كـــل مجَفْجَـــفٍ ... يغشـــىَ الكريمـــةَ فوقَ كلِّ مجـفجف
قـــومٌ يخـــوضونَ الحِمامَ شجـــاعةً ... لاينظرُون إليـه من طـرفٍ خَـفى (٢)

ويستقبل أحد الشعراء صلاح الدين الأيوبى مهنئا بانتصاراته على الصليبيين فى مدينة غزة، فيشير إلى عنصرية الجيش الأيوبى، ويعرض بالروم والأقباط.

(١) شرح ديوان بهاء الدين زهير ، ص ١٤٩ .

(٢) الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربى ، محمد سيد كيلانى ، ص ٢٢١ .

فتىً مذ غزا بالخيل والرجل غزةً نأى عنّ نواحيها الرّضا ودنَا السخطُ

رَمَاها بأسدٍ مالهُنّ مرابضٌ ولا أجمٌ إلا الذى تنبتُ الخطُّ

وعاث ضواحيها ضحى بكتائبٍ من الترك لانوب طغامٌ ولاقبطُ (١)

كما يعرض البهاء زهير بالعرب فى مديحه أحد ملوك الأيوبيين فيصفه بالكرم وأن كرمه لايعادله كرم حاتم الطائى وكعب بن زهير، ولاينبغى أن يقارن كرمه بالعرب الصعاليك بل إن عبيد ممدوحه تتيه فخرا على كسرى وتفضله :

دعُوا ذكرَ كعبٍ فى السَّماحِ وحَاتمٍ

فليسَ بُعَيْد اليومِ ذَاكَ التسمُّحُ

وليس صعاليكُ العرب كيوسفَ

تعالوا بُنَاةُ الحقِ والحقُّ أوضحُ

فما يوسفٌ يقرى بنابٍ مُسِنَّةٍ

ولا العرقُ مفصودٌ ولا الشاةُ تُذْبَحُ

ولكنَّ سُلْطانى أقلُّ عبيدِهِ يتيهُ على كِسْرَى الملوكِ ويرجحُ (٢)

وسلك بعض الشعراء فى إبراز العصبية التركية مسلك الغزل كالذى رأيناه عند ظافر فى تفضيل المرأة العربية، فابن النبيه يبدى إعجابه بالمرأة التركية، وبالغلمان الأتراك ولايقف عند وصفهما بالجمال أو إظهار إعجابه فحسب، بل يعرض بالجمال العربى وينفيه.

اللهُ أكبرُ ليسَ الحُسْنُ فى العَرَبِ كمْ تحتَ كمةِ ذا التركىّ من عَجَبِ

صُبْحُ الجبين بليلِ الشَّعرِ منْعَقدٌ والخدُّ يجمعُ بين الماءِ واللَّهَبِ (٣)

---

(١) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ .

(٢) شرح ديوان « بهاء الدين زهير » ، ص ٦٣ .

(٣) ديوان ابن النبيه المصرى ، ص ٢٣٤ ، ٤٠٤ .

ويمضى ابن النبيه فى تفضيله الجنس التركى على غيره فيمن يحب ويهوى فيصفه بلين العطف وقسوة القلب، وسهولة الخداع، وصعوبة المراس :

من بنى الترك لين العطف قاسى القلب سهل الخداع صعب المراس (١)

ثم يصف ملامح العينين. وقد تميزت بالضيق، والضيق علامة البخل، فإذا جاد كان كريما فياض العطاء :

ضيق العين وهو من صفة البخل فان جـــاد كان ضـــد القياس (٢)

ويذهب ابن النبيه فى تفضيل الجنس التركى إلى الرجوع به إلى الأصل اليافثى، ولعله أراد أن يثيرها عصبية بين العروق الجنسية السامية واليافثية كالتى رأيناها فى العصر الحديث لدى بعض المستشرقين الذين بالغوا فى تفضيل الجنس الآرى على الجنس السامى : يقول ابن النبيه :

مَـــوْلاى وجْـــهُك جـــنَّـــةٌ ورضـــا بُك المعْسُـــولُ كـــوثرْ
يفـــترُّ مســـكٌ خـــتامِه عن مُســـكرٍ عطـــرٍ ومسْـــكَرْ
من نســـلِ يافِـــثِ نافـــثٌ وســـنانُ يســـهرنى ويسْحرْ (٣)

ويحذرنا الشاعر من فتنة الجمال التركى، فمعشوقه غزال فى الرقة والعذوبة ولكنه يفتك فتك الأسود :

إيَّـــاك والأتْـــرَاكَ إنَّ لبعْضِـــهم أشخـــاصَ غزلانٍ وفِـــعْلَ أسُـــودِ (٤)

وقد دفعه هذا الإعجاب إلى التحدى فعندما تعلق قلبه بحب البدوى أخذ يفتخر بجماله على الأتراك وغيرهم فيقول :

قـــلبِى عـــلى التركِ بهـــذا البـــدوىِّ يفْتَخِـــر (٥)

ويبدو أن الشاعر قد ضاق ذرعا بفعل بعض الجنود الأتراك فلذا يصفهم بتلك الصفات المزرية :

---

(١) ، (٢) ديوان ابن النبيه المصرى ، ص ٢٣٤ ، ٤٠٤ .
(٣) ديوان ابن النبيه المصرى ، تحقيق عمر محمد الأسعد ، ص ٢٦٢ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٤٤٢ .
(٥) المرجع السابق ، ص ٤٢٣ .

صـــنْفٌ من التُرْكِ والخُـدامِ قدْ بلغَا بأقـــبحِ الفعـــلِ فينا غايةَ الأمـــلِ
فســـعدُ هذا بماقـدْ قدَّ من دُبُـــرٍ فـيه وهـــذا بما قُدَّ من قـبلِ (١)

الطوائف الدينية :

إن من يطالع أدب مصر إبان الحروب الصليبية يجد الإلحاح على فكرة العالمية الإسلامية مطلبا نادى به الأدباء ، الشيعى منهم والسنى، ومداح العرب والأتراك وأصفياء الفاطميين والأيوبيين، فجميعهم تلاقوا حول فكرة واحدة هى نصرة الإسلام وحماية بلاد المسلمين.

وهذا ابن سناء الملك يعبر عن التحام العناصر البشرية فى نصرة الإسلام ويهنىء صلاح الدين الأيوبى بانضمام حلب إلى مصر فيقول :

بدَوْلَـــةِ الـــتُرْكِ عزَّت مـــلَّةُ العـــربِ وبابنِ أيـــوبِ ذلتْ بيعـــةُ الصُـــلُبِ
وفـــى زمـــانِ ابنِ أيوبَ غـدتْ حلـبٌ من أرضِ مصرَ و صارتْ مصرُ من حلبِ
ولابن أيـــوبَ دانتْ كـــلُّ مملكـــةٍ بالصُفْحِ والصلحِ أوْ بالحَـرْبِ والحَـربِ
مظـــفَّرُ النـــصرِ منعوتٌ بهمَّـــتِهِ إلى العزايـم مـدلولٌ عـــلى الغـــلبِ
والدَّهْرُ بالقَـدرِ المحـــتومِ يخـــدُمُهُ والأرضُ بالخَـــلْقِ والأفـلاكُ بالشُّـهُبِ
ويجْتَلى الخـــلقَ من راياتِـــه أبـــداً مبيـــضَّةُ النُّصـــرِ من مصفرَّةِ العـذبِ
إنَّ العواصِـــمَ كـــانتْ أىُّ عاصمـــةٍ معصومـــةً بتعاليهـــا عن الرُّتَبِ (٢)

وقد أشرت إلى تسامح المسلمين مع الأقليات الدينية الأخرى وخاصة أصحاب الشرائع السماوية (٣) . وإلى بلوغهم مناصب عليا فى الدولة، وإلى انقطاع الشعراء لمديحهم، ولم يظهر فى الأدب المصرى مايدل عن صراع أصحاب الديانات السماوية فى مصر، وإنما ظهر نوع من التعريض بالنصارى وكانت الحروب الصليبية هى المحك الذى أبرز هذا التيار فى الأدب.

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠٩ .
(٢) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، د . محمد كامل حسين ، ص ٨٧ .
(٣) راجع تفاصيل هذه العلاقة ، ووضع اليهود والنصارى فى الدولة الأيوبية ، كتاب الحضارة الإسلامية ، آدم متز (مترجم) ، ص ٥٧ وما بعدها .

قال الشاعر "الجوينى" يبعث بهذه التهنئة من مصر إلى صلاح الدين بعد استيلائه على القدس ويعرض بالمسيحية :

لوْ أنَّ ذا الفتحَ فى عصرِ النبَى لقدْ ... تـنُزِّلتْ فـيه آيـاتٌ وقـرآنُ

ياقُبْحَ أوجهِ عـبادِ الصـليبِ وقـد ... غـدا يبرقِعُـها شـؤمٌ وخـذلانُ

خزنت عند إلهِ العـرش سـائرُما ... ملكـتَه وملـوكُ الأرضِ خـزان (١)

ويقول شاعر آخر :

قد أنصفَ التَّوحيدَ من تثليثِهم وأقَام فى الإنْجيل حدَّ المصْحَفِ (٢)

ويتهكم ابن مطروح من الملك "لويس التاسع" أثر هزيمته فى المنصورة وحبسه فى دار "ابن لقمان" فيدعو له بالأجر، لأنه كان سببا فى قتل عباد المسيح :

أجـرك اللـهُ على ماجـرَى ... من قـتلِ عُـبَّادِ يسـوعِ المسـيح

وقد تجلت هذه الظاهرة بوضوح فى أشعار البوصيرى "ولاسيما مدائحه للرسول (ص) إذ كان دائم التعريض بالنصارى وعقيدتهم. يقول فى قصيدة البردة.

دَعْ ما ادَّعتهُ النَّصَارى فِى نبيِّهم ... واحْكُمْ بِماشِئْتَ مدحاً فِيه واحْتَكِم

وإذا كانت الطائفة المسيحية قد عاشت فى وئام مع المسلمين فى مصر وشاركت فى الدفاع عن أرضها ضد الصليبيين الذين أعلنوها حربا دينية، وهى فى الحقيقة حرب استعمارية فإن المصريين لم يتقبلوا الطائفة اليهودية وفى هذه الأبيات يعبر أحد الشعراء عن رأيه فى الجالية اليهودية :

يايَهُـودَ الزمـانِ أنْتُم حمـيرٌ ... وتُيُـوسٌ بِكُـمْ تـقاسُ التيـوسُ

حين أضْحَـى "شمويل" فيكُم رَئِيساً ... وبقـدرِ المـروسِ يأتِي الرئيـسُ

فـو ثـورٌ وربُّـه كـان عجـلاً ... من قـديمٍ وصـهرُه جامـوسُ (٣)

---

(١) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، د . محمد كامل حسين ، ص ١٩٦

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٣ .

(٣) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ٢٢٤ .

العلاقات الأسرية

سئل أحد الجاهليين عن سر تسميتهم أبناءهم بأسماء خشنة مثل صخر وحرب ومرار وتسميتهم عبيدهم بأسماء رقيقة مثل بلال ورباح فأجاب : "إنما نسمي عبيدنا لأنفسنا ونسمي أبناءنا لأعدائنا". وكان هذا الجاهلي صادقاً كل الصدق في تمثيل ما تعكسه العلاقات الاجتماعية على النظام الأسري، وهو صادق أيضا في تصوير العلاقة بين الطبيعة وسلوك أهلها، ومايسود بينهم من قيم اجتماعية، فالصحراء المخيفة بوحوشها ولصوصها وجدبها وعنفها تحتاج الى الخشونة حتى في الأسماء التي يطلقها سكانها على أبنائهم يرهبون بها عدوهم ويستمدون منها الأمن لأنفسهم. ومن هنا اعتز الجاهلي بقبيلته وتحدث عن مختلف العلاقات القائمة بين أفرادها. ويمكننا أن نتابع صور هذه العلاقات من خلال العرض الذي قدمه أستاذنا الدكتور "أحمد الحوفي" في كتابه "المرأة في الأدب الجاهلي".

وإذا ماتتبعنا الأدب المصري في العصرين الفاطمي والأيوبي فإننا لانجد فيه حديثا واضحا عن العلاقات الأسرية، مع أن الأسرة المصرية معروفة بتماسكها الشديد، فلعل سبب ذلك أن العلاقة الأسرية تختلف عن العلاقة القبلية، فانتماء المصري إلى المجتمع كوحدة متكاملة لم يدفعه إلى البحث في العلاقات الجزئية التي اهتم بها غيره ممن يعيشون في ظل النظام القبلي ليواجهوا بوحدتهم القبلية قوة أخرى مضادة في المجتمع نفسه.

ولقد أحس المصري بانتمائه القوي إلى المجتمع، والتصاقه الشديد بالأسرة، فلم يعد هناك حاجة تدفعه إلى العمل على تنمية العلاقة بين أفراد الأسرة الصغيرة، وبذلك لم يقدم لنا الأدب المصري في تلك الفترة ماينم عن وضع المرأة في الأسرة أما أو بنتاً أو زوجة أو قريبة، كما لم يحدثنا عن العلاقات القائمة بين أبناء العمومة أو الأقربين من الأرحام والعصب كالتي حدثنا عنها الأدب الجاهلي مثلا. ولعل سبب ذلك أيضاً : أنه لم تكن هناك انقسامات داخل الأسرة المصرية حتى يندفع الشعراء إلى العمل على رأب الصدع ولم يكن هناك ظلم واقع على المرأة حتى ينبري المصلحون للدفاع عن حقوقها بإبراز قدرها وتبيان خدماتها للمجتمع. وإنما كانت هناك عواطف رقيقة نحو البنوة وعلاقة ظرف ومحبة واشتهاء نحو النساء. وهذا ماتلاحظه

من خلال استعراض الأدب المصرى الذى يتحدث عن العلاقة الأسرية فى الأدبين الفاطمى والأيوبى.

الأبنـــاء :

لم يقدم لنا الأدب المصرى صورة كاملة عن البنوة، وإنما أشار إلى بعض الحقائق العامة فى العواطف نحو الأبناء فمحبة الأبناء على علاتهم طبيعة فطر الله الناس عليها يعبر عن هذه الحقيقة أحد الشعراء المصريين بقوله :

لافـــرق بينكُـم وبـــينَ فـــؤادِى ... فـــى حـــالِ قُرْبِي منكُـــمُ وبعـــادى

فَلَقَـــدْ حَبَبْتُكُـم عـــلى علاّتِكـــم ... كمحـــــبَّةِ الآبـــــاءِ للأولادِ (١)

وهناك صورة أخرى نراها شديدة الصلة بالشخصية المصرية فى تصوير العلاقة الأسرية، وهى أن بعض الشعراء كان يتوسل إلى من يمدحهم بإثارة العواطف الأسرية وهى عواطف تقوم على إثارة نوازع الرحمة والشفقة، وإن مزجها بعض الشعراء بشىء من التعفف لكنها نغمة محببة للمصريين حتى يومنا هذا "من أجل الأولاد". هذه النغمة القديمة الجديدة هى التى يرددها الشاعر المصرى البهاء زهير فى مديحه الناصر يوسف بن محمد بن عادى بن أيـــوب :

ونَفْســـى بحمـــدِ اللهِ نفسٌ أبيـــةٌ ... فهَـــا هِـــى لاتهفُـــو ولاتتلهَّـــفُ

ولكنَّ أطْفَـــالاً صـــغاراً ونسْـــوةً ... ولا أحـــدٌ غيـــرِى بهـــمَ يَتلطَّـــفُ

أغارُ إذا هـــبَّ النَّســـيمُ عليهُـــم ... وقـــلبِى لهُم من رحـــمةٍ يترجَّـــفُ

سرُورِى أن يَبْـــدُو عليهـــم تنعُّـــمٌ ... وحُـــزْنِى أن يبـــدُو عليهِم تقشُّـــفُ

نخـــرتُ لهُم لُطْـــفَ الإلهِ ويوســـفا ... ووالله لا ضَـــاعوا ويوسفُ يوسفُ (٢)

---

(١) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١ .

(٢) شرح ديوان بهاء الدين زهير ، ص ١٦٩ ، البهاء زهير ، مصطفى عبد الرازق ص ٥٦ .

وربما ضاق بعض الشعراء ذرعا بالبنوة والأسرة لاكرها فيها، وإنما الفاقة والعوز جعلته ملولا حتى من زوجه ، لأنه إن اقترب منها أتت له بالبنين، وإن أراد طلاقها عاقه دفع مؤخر صداقها، وهكذا أصبح الخوف من إكثار البنوة مصدر عذاب الشاعر أبى الحسين الجزار :

ولـه زوجـــةٌ مـــتى نظـــرتـه حَـسِبَتْ ليتَـــها عَجُـــوزٌ عقـيمْ

ظـــلَّ فى أســـرِها لأجلِ كـــتابٍ معـــلمٍ يقْتَضِـــى بِهِ المعـــلومْ

فهو يخشى الطلاق فقـــداً ....(١)

المـــرأة :

على الرغم من سمو مكانة المرأة المصرية ونيلها من حقوقها فى مختلف عصورها مالم تنله امرأة فى مجتمع آخر، وعلى الرغم من نشاط المرأة المصرية فى مجال السياسة (٢) والآداب فى العصرين الفاطمى والأيوبى فإن الأدب فيها لم يصور لنا إلا جانبا واحدا هو وصف جمالها ومايرتبط به من زينة وفتنة وبواعث الحب أو الجنس ومظاهر إعجاب الرجال بها فجاء الحديث عنهامعبراً عن نول رجال ذلك العصر حيال جمال المرأة أكثر من أى شىء آخر.

فقد تحدث الشعراء عن المرأة محبوبة، ومعشوقة وأخذوا يتأملون مفاتنها، ويبرزون ماراق لهم من محاسن جسمها فى إقبالها وإدبارها، ويتوددون إليها ويبثونها أشواقهم التى تنبىء عن الظرف أو الجنس.

ويكاد ينعقد إجماعهم على الإعجاب بطول القامة ونعومة الجسم. وطول القامة يناسبه طول العنق، وبهذه المحاسن يصف أحد الشعراء فاتنته بقوله :

---

(١) المغرب فى حلى المغرب ، جـ ١ ، ص ٨ ، ٣ .

(٢) من ذلك ما قامت به سيدات القصر الفاطمى فى إدارة الشئون السياسية من وراء ستار كتدبير مقتل الصالح طلائع بن رزيك . والاستعانة بجيش نور الدين ، ومن ذلك ما قامت به شجرة الدر التى حكمت مصر ثلاثة شهور . وترجم العماد الأصفهانى فى الخريدة لأبيات مصريات ، وذكر نماذج من أشعارهن. وذكر الأدفوى تراجم لأربع نساء هن :تاج النساء ابنة عيسى بن على بن وهب، خديجة بنت على بن وهب ، رقيه بنت محمد على بن وهب . مظفرية بنت عيسى بن على بن وهب ، مقدمة الطالع السعيد للأدفوى

وفـــي ذلكَ الحَـــيِّ خُمْصَـــانَـــةٌ لها عُـــنقُ الشـــادنِ الأغْـــيَدِ (١)

ويقول آخر مشيداً بصفة الهيف ونعومة الجسم أيضا :

ولـــي فيهـــم شـــادنٌ أهـــيفُ يفُـــوقُ على الغصْـــنِ المـــائسِ (٢)

ويضيف ثالث إلى صفة الهيف جمال العيون ويشبهها بعيون الظباء الواسعة :

وأهْـــيَفُ للغصـــنِ أعطافُـــه وللظـــباء العـــينِ عيْنَـــاه (٣)

وطول الجسم أمر نسبى، فلا ينبغى أن يزيد عن الحد اللائق ولا أن يصل إلى حد القصر فبهذه السمات يتمنى عمارة أن يستمتع بالمرأة أو بالنساء :

مـــنْ كُـــلِّ ذاتِ قـــوامٍ مجْـــدُولـــةٍ كالعَـــنَانِ

لا بالطـــوالِ العَـــوَالِي ولا القصـــارِ السَّـــمانِ

يَمْشِـــينَ مشـــيَ حـــمامٍ مقـــيَّدِ الخَـــطْوِ عـــانِ

فهـــذِهِ بـــدْرٌ تَـــمٌّ وهـــذِهِ غـــصْـــنُ بـــانِ (٤)

واجتمع ذوق ذلك العصر على تفضيل نحولة الخصر وعظم الردفين فى جمال الجسم :

مُغْـــرى بحـــبِّ الغانياتِ هَـــفَتْ به هيـــفُ الخُـــصورِ ورجْـــحُ الأكْفَالِ

غَرْسُ القضـــيبِ على الكَـــثيبِ بقدِّها فاتَـــتْ بمـــيَّادٍ على مُنْـــهالِ (٥)

ويشبه أحد الشعراء ما يلقاه من عنت وظلم حبيبه، بالعنت الذى يلقاه خصره النحيل من ردفه الضخم العظيم :

يَمْشِـــى فَيَلْـــقَى خِصْرُه من رِدْفِـــه مِـــثْلَ الذى أَلْقَـــاهُ من إعناتِـــه (٦)

---

(١) الخريدة ، جـ ٣ ، ص ٧٣ . * خمصانة : ضامرة الخصر والبطن

(٢) ، (٣) المرجع السابق ص ٢٦ ، ص ٨٧

(٤) ديوان عمارة اليمنى ، ص ٣٨٣ .

(٦) الخريدة جـ ٢ ص ٨٢ ، ص ١٢ .

ولكن شاعرا آخر يشيد برشاقة جسم محبوبته فعلى الرغم من نحول الخصر وضعفه لكنه لايتألم من عظم الردفين :

ولوْ سَـلَكتْ أمراً لما كان خصْـرُها عـلى ضَعْفِـه منْ رِدْفِـها يتَظلَّمُ (١)

ويحسب أحد الشعراء أن الخصر مغروز فى الردف، ولكنه يلاحظ تثنى الخصر فى الردف فيفطن إلى نحولة الخصر وعظمة الردفين

لَـوْلاَ تَثنُّـى خِصْـرِه فى رِدْفِـه ماخِـلْتُ إلا أنَّـه مغـروزُ

تهفُـو غـلالتُه عـليه لطـافـةً فبجسْـمِه من طَـرْزِها تَطْـريزُ (٢)

ويشكو أحد الشعراء من ضخامة نهدى محبوبته، لأنهما حالا دون تلاقى القلبين ساعة العناق :

شـكوتُ إليهَا نَهْدَين فِى الصَدْرِ بأعَدا مُعَـانِقَها عنْ ضَمِّه وهـو مُغْـرَم (٣)

أما العيون فأعجبوا منها بالدُعج :

يامُعـيرَ الغُصْـنِ قـدًّا أهْـيَفَا ومعـيَر الظـبى طرفاً أدْعَجـا (٤)

علـمتْ عينَـاك عُـذْرِى فِيـهما فأقـامتْ لِى فـيك الحُجَجَـا

وتغنوا بجمال الوجه وافتتنوا فيه بالخال على الجبين، والحمرة على الخدين :

تتيـه بغُـرةٍ بدرُ التَّمـام وسـالفةِ الرشـأ الأغـيدِ (٥)

وأشادوا بنضارة الخدود وسريان ماء الحياة فيها

ورقَّ مـاءُ الحُـسْنِ فى خَـدِّه فَفَتَّح الـورْدُ ونـدَّاه (٦)

---

(١) الخريدة ، . جـ ١ ص ١٦٢ .
(٢) الخريدة جـ ٢ ، ص ١٣
(٣) الخريدة : جـ ٢ ص ٤٨ .
(٤) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ٧٢ . والسالفة : ناحية مقدم العنق .
(٥) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ٨٨ .
(٦) المرجع السابق .

ويقول آخر :

يبْـدُو على الـــوَّد الجـنِّى إذا بدا خجَـلٌ من التَّقْصيرِ عن وَجـنَاتهِ (١)

ويشرق جمال الوجه فى إطار الشعر الأسود :

شمسُ الضُّحَـى غُـــرَّتُه والدُّجـى طُـــرَّتُه والمســـكُ ريـَّاه (٢)

واستملحوا منها عذوبة الريق ورائحة الفم الطيبة :

قدْ مَـــزَجَ الخـــمرة مـــنْ رِيقـــهِ بِبَـــرْدِ كافـــورٍ ثنايـــاه (٣)

أما زينتها فكانت وشما تضعه على خدها . فترسم بالمسك صورة عقرب أو ثعبان إثارة أو إغراء، فهى توحى للرجل وتناديه حينما تحذره من الاقتراب أو تخيفه من العقرب أو الثعبان. ومع ذلك فلا بأس بهذا اللذغ، ولابأس من الاقتراب.

فالشاعر ابن عرام يصف حبيبته بـالقسوة، ومع ذلك فإنه يقبله على الرغم من أن العقرب يلدغه :

مَنْ مُعينـى على اقتنـاصِ غـزالٍ نافـــرٍ عـــن حـــبائلى روَّاغ

قـــلبُه قســـوةً كجـلمودِ صخـرٍ خـــدُّه رِقـــةً كزهـــرِ البـــاغ

كـــلما رمْـــتُ أن أُقـــبِّل فـــاه لَدَغَـــتْنى عقاربُ الأصْـــدَاغ (٤)

ويرسل الملك العزيز إلى وزيره طالبا أن تتغزل فى جارته صنعت على خدها بالمسك حية وعقرباً فقال بديها :

فَدَيْتُـــها مـــن غـــادةٍ مخـــلوقةٍ مـــن طـــربِ

ســـــألتُها فـــى قُبـــلةٍ فـــى خـــدِّها المذهَّـــبِ

فجَـــاوبتْ مُعْجَـــبةً بكفِّـــها المخـــضَّـــبِ

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢

(٢) ، (٣) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ٨٨

(٤) الخريدة ، جـ ٢ ص ١٩٢

روضـــةُ خـــدٍّ حُرســـتْ بحـــيَّـــةٍ وعـــقْرَبِ

مـــن رامَ أنْ يلْثِمَهـــا فلْـيَرقـــها بالذهـــبِ

وليشـــرَبِ الدِّرْيـــاقَ مـــن رضـــابِ ثَغْـــرِي الشنِبِ (١)

ويعترف القاضى الفاضل بفتنة العقرب، لكنه اكتشف أن لها رقية تعجزها عن اللذع وتكف أذاها عنه، ألا وهى القبلات :

حـــدِّثْنا يافتـــى وأخْـــبرنا وأيُّمـــا شـــئْتَ منهـــما فَـقُـلْ

عن حـــيَّةٍ فى الخـــدودِ ظالمـــةٌ تمـــنع من شـــمِّ وردِهـــا الخضِلْ

إنَّ لهـــا رقيـــةً مجـــرَّبـــةً وإنَّ ألفـــاظَها من القـــبلْ (٢)

ويبدو أن رقية الشاعر لم تفلح دائما فتراه يعاتب محبوبته قائلا :

ياكَعْـــبَةَ الحســـنِ التى زارَهـــا مُحْـــرِمُها عُـــرْيَان مَـــنْ وَصَـــلِ

مَنْ أمـــرِ العقْـــرَبَ فى الخـــدِّ أنْ يفتى فـــينا : اللثـــمُ بالقـــتلِ (٣)

ويصور القاضى الفاضل زينة المرأة برسم الحية على خدها، ويصف الخد بالحمرة الشديدة التى تشبه الجمر :

من حيَّةٍ فى الجمْرِ ما احـــترقَتْ والجـــمرُ فوقَ الخـــدِّ ما اشْـــتَعَلا

لو أنَّـــها تِـــلْكَ التـــى انقـــلبتْ يومَ العـــصَا لم يعـــصِ من جـــهلا (٤)

وللدلال الأنثوى متعته فى نظر الذوق المصرى :

غـــرَّاءُ غرَّتها الشبيبةُ فاكْتَسَتْ تيـــه الـــدَّلالِ وعـــزَّةَ الإدْلالِ

ممكورةٌ مكرتْ بقلْبِى والهـــوى يســـتضعفُ المحـــتالَ للمختالِ (٥)

---

(١) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ، د . أحمد أحمد بدوى ، ص ٣٥ .

(٢) ، (٣) ديوان القاضى الفاضل ، جـ ١ ، : ص ٨٧ . استخدام القاضى الفاضل علم الحديث فى الغزل وهو إحدى خصائص العصر كما سنوضحه .

(٤)ديوان القاضى الفاضل ، جـ ١ ، ص ص ٤٨ .

(٥) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ٨٢ . الممكورة من النساء : المدمجة الخلق مستديرة الساقين

ويعجب البهاء زهير بلون السمرة فى المرأة :

وسَـمْراءَ تحكِى الرُّمحَ لوناً وقامةً ... لـــها مهجـتى مبذولةٌ وقـيادِى (١)

تلك أبرز معالم جمال المرأة فى نظر الذوق المصرى من خلال الأدبين الفاطمى والأيوبى، وهى كما تبدو بعيدة عن الذوق الفرعونى الذى نشاهده فى التماثيل والرسوم الفرعونية، حيث نرى صورة المرأة المصرية فارعة الطول، واسعة العينين، ضئيلة الردفين لها جسم متناسق يساعد على الحركة السريعة لا على التثنى والتمايل والتكسر.

وفى الوقت نفسه أرى أن الذوق المصرى فى العصر الوسيط لم يبتعد عن الذوق العربى فى تصور المرأة الجميلة وقد أجمله الشاعر الجاهلى فى قوله :

هْيـــفَاءُ مُقْـبلةً عجـــزاءُ مدبـــرةً ... لايُشْـتَكى قِـصَـرٌ مِنها ولاطـولُ (٢)

ونلاحظ إعجاب المصريين بجمال العين الدعجاء على عكس ماوصف به الذوق العربى جمال العيون فى الاتساع والاحورار وشبهوها تارة بمقلة الظبى وأخرى بعيون المها فربما كان الذوق المصرى يعكس بعض ملامح البيئة الاجتماعية، وقد كثر فيها العنصر التركى من نساء وغلمان حسان، والترك هم الذين يتميزون بدعجة العيون، فمن الممكن أن تكون هذه الصفة قد أصبحت محببة إلى المصريين حبا حقيقيا، أوفنيا فغدت صفة ويستعذبونها فى أشعارهم.

وقلما نجد تصويرا لمكانة المرأة الاجتماعية فى أدب هذه الفترة ومن ذلك القليل مارواه المقريزى من أن الملك المعز أمر سنة ٦٥٣هـ، ألا تخرج المرأة من بيتـها ولايمشى رجل بلا سراويل. فقال أبو الحسن الجزار فى ذلك.

حَـسَنًا المـــلكُ المعـزُّ على الرَّعَـايا ... وألزمَهُـــم قـــــوانينَ المـــرُوَّةِ

وصـــــانَ حَرِيمَهـــم من كلِ عـــارٍ ... وألبسَـــهُم ســـراويلَ الفـــتُوَّةِ (٣)

وفيما عدا ذلك لانرى آثاراً أدبية توضح لنا العلاقة الأسرية القريب منها أو البعيد.

---

(١) شرح ديوان البهاء زهير ، ص ٧٩

(٢) شاعر الغزل ، عباس العقاد ، ص ١١٧ ، القاهرة ١٩٦٤ م .

(٣) كتاب السلوك ، جـ ١ ص ٣٩٧

مظاهر الحياة العامة

لكل إقليم وكل عصر مظاهر حياته العامة التى قد يشترك فيها عصران أو بيئتان ولاشك أن العامل الزمنى هو المحك الرئيسى للتعرف على خصائص بيئة من البيئات من خلال مظاهر حياتها العامة، فشيوع بعض المظاهر أو اختفاؤها يعين فى تحديد سمات العصر بحيث يمكن القول بوجود مظاهر محددة تميز حياة الناس فى العصر الحجرى أو عصر البخار أو غيرها. ومع ذلك فلا يمكن إغفال تفاعل هذا العامل الزمنى مع خصائص البيئة الجغرافية والطبيعة البشرية. وسأقلب صفحات الأدبين الفاطمى والأيوبى لنرى من خلالهما بعض المظاهر العامة فى حياة المصريين مثل : الأطعمة والدور، والحمامات، ووسائل المواصلات، والأندية العامة :

الأطعمة :

كانت مصر غنية بمواردها الغذائية من لحوم وأسماك وطيور وفواكه ومن خيراتها طعم الأدباء وتبادلوا الدعوات على تناول الأطعمة. فهذا الشاعر المصرى ظافر الحداد يدعو أحد أصدقائه إلى تناول الطعام معه، وكان قد أعد له نوعا من السمك يسمى سمك (الراى) ويبدو أنه نوع من الأسماك التى تعيش فى النيل وتتميز بلحم طرى خال من العظام والشوك وبهذا يغرى الضيف على قبول دعواه ويطمئنه على سلامة أسنانه من تناوله :

أمَـــالك فى الـــرَّاى رأىٌ فـــإن ... له صفـــةٌ أو جـــبتْ أن يُحـــبْ
تربـــَّى مـــعَ النِّيلِ حـــتىَ ريـــا ... وصـــارَ من الشُّحـــمِ ضخماً خـــدبْ
ولاحـــسٌ للعظـــمِ فى أكـــلِهِ ... فليس على السنّ منـــه تَعَـــبْ (١)

ويستمر الشاعر فى إغراء صديقه فيصور له السمك قبل أن ينضج ناصع البياض فإذا مادخل فى الزيت علته طبقة من الحمرة المشوبة بصفرة فكأنه سكينة بيضاء مصقولة طليت بالذهب:

يروقُـــك نيئـــاً وفـــى قَـــلْيِهِ ... فَتَنظـــرْ فى حالـــتِيه العَجَـــبْ
تَصُـــولُ الســـكاكينُ مصقـــولةً ... وفـــى القلى تمويهُهـــا بالذهـــبْ (٢)

(١) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١٦ . والخدب : الضخم و العظيم
(٢) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١٦ ، ص ٥٠

ويظهر من خلال هجوم بعض الشعراء على المستغيدين فى الدولة – أن اللحم كان وفيرا إلى الحد الذى أصبحت فيه الأحشاء (كالطحال أو المصران) تقدم للقطط وغيرها من الحيوانات، فهو يخاطبهم قائلا :

وارتعُوا فى جنورِ ذى الدولةِ الـها ... مِـى نَداهـا فى أطيبِ اللحمانِ

واشْغَلُونَا بمـا به يشـغَلُ الهِـرّ لنفـعٍ أو خـيفةِ العـدوانِ

بالطحـالِ المسـدودِ أو طرفِ الريّـة أو بالمعـلاقِ والمصـرانِ (١)

وما أكثر الفواكه التى ذكرها الشعراء واصفين ومشبهين..

فظافر الحداد يتأمل البلح الأحمر متدليا على نخلته وقد أحاط بها السعف الأخضر فكأن البلح فى حمرته عقيق، وكأن الخوص فى خضرته زبرجد :

انظـرْ إلَى البسـرِ إذ تبـدُى ... ولـونُه قـدْ حـكَى الشـقِيقا

كأنَّمـا خوصُـه عـليه ... زبرجـدٌ مثمـرٌ عقيقـا(٢)

ويمسك ظافر الحداد بواحدة من حبات التين المصرى ويصفها بقوله .

جـاءَ بلـوزٍ أخضـرٍ ... أصفـرُه مـلءُ اليـدِ

كأنَّمـا قـلوبُـه ... من تـوأمٍ ومُـفْرَدِ

جـواهـرٌ لكـنَّما الـ ... أصـدافُ مـن زبرجـدِ (٣)

ويتناول واحدة من الكمثرى ويقضمها فيحس بلذة طعمها ورائحتها ويقرن بين قضمها وعض النهود وتقبيلها :

للـهِ وافـرُ كمثرى نكرتُ بـه ... ماكـنتُ أعهـدُ فى أيامـىَ الأوَلِ

لم أدنـه لفمـى إلاَّ وأوهـمه ... مـن النهـودِ لنيذِ العضِّ بالقُـبَلِ

---

(١) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١٦ ، ص ٥٠

(٢) ظافر الحداد ، شاعر مصرى من العصر الفاطمى ، د حسين نصار ، ص ٢٥

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٥ ، ص ١٢٦ .

قدْ ذُقْتُ من طعْمِه ما أكادُ يبلغُ بـــي ماذقْتُ من رشفِ محبوبٍ على عجـلِ

يحكى قواريرَ ماءِ الـــوردِ خـــالطَهُ فيها مع الزعفرانِ المسكُ بالعسلِ (١)

ويصف "ابن حيدرة العقيلي" العنب فيقول :

أمهـــاتُ الثّـــمار بينَ الرُّوابـــي تائهـــاتٌ بلبـسِ خضـرِ الثّيـــابِ

وبنـــاتُ الكـــرومِ تجـلى بما قدْ صـــاغَه الماءُ من عقودِ الحـبابِ (٢)

وكان الظرفاء يتبادلون الهدايا بالفواكه، فالشاعرة المصرية "تقية الصورية" أرسلت (توتا) إلى أحد الأدباء فبعث إليها شاكرا مادحا :

وتـــوتٌ أتانـــا ملؤه فى احمراره كدْمعى على الأحبابِ حين ترحّـــلوا

هـــديّةُ من فاقـــتْ جمالاً وفطـــنةً وأبْهَى من البدرِ المنـــيرِ وأجْـــمَلُ

فـــلا عـــدمتْ نفسى تفضلها الذى يقصّرُ وصفِى عن مداه ويعـــدلُ (٣)

وقد استحسن الذوق المصرى فى تلك العصور من البطيخ ثقل وزنه وبرودته، فالشاعر خفيف الظل قمر الدولة بن داوس المصرى يقول

عن نفسه :

فغـــدوتُ كالبطـــيخ لا حـــلواً بل التشبيهُ يحكى نائمًا أو قـــاعـداً

لايحـــمدُ الوصّـــافُ من أوْصَـــافِه مالمْ يكنْ خشـــناً ثقـــيلاً بارداً(٤)

واستعاض بعض المصريين بلذة الشراب لذة القطايف التى ينتشر تناولها بين الناس فى شهر رمضان، ولما كان هذا الشهر مكرما يستحى فيه كثير من الناس تناول الخمر فلا بأس من أن يستعيضوا بها القطايف :

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٥ ، ص ١٢٦ .

(٢) فى أدب مصر الفاطمية ، د محمد كامل حسين ، ص ٢٩٢ .

(٣) ، (٤) الخريدة، جـ ٢ ، ص ٢٢٢ . ٢٢٠ .

أهـــلاً بشـــهرٍ غداً فيه لنا خلـفٌ أكـلُ القطايفِ عن شربُ ابنة العنبِ
وافـــى الصـــيامُ فوافَتنا قطائفُه كمـا تسـنَّمْتُ الكثبانَ عن كثبِ (١)

وقد تأملها الشاعر متراصة ملفوفة وبعضها مقلى، يسيل اللعاب ويسد رمق الجائع فهى ملفوفة كأنها أغشية بيضاء كالفضة، فإذا قليت احمرت، وكأن الأغشية البيضاء نقشت عليها تعاويذ مذهبة :

مـنْ كُلِّ ملفُوفـةٍ بيضٍ الى أُخَـرٍ حـمرٍ من القلى تشفِى جنَّة السُّغبِ
كأنَّـهن حـــروزٌ ذاتُ أغشـــيةٍ من فضـــةٍ وتعاويذٍ من الذَّهـــبِ (٢)

ويدعو أحد الشعراء للكنافة بالهناء، ويلعن أيام المخلل ويشتاق هبوب نسيم القطائف فى السحور، ويعتذر لزوجته عن قصر ذات اليد بأن الحلوى المنسوبة إلى القاهرة ليست فى مصر :

سَقَى اللهُ أكْنَافَ الكُـنَافةِ بالقُطْـرِ وجـادَ عـليْها سكرٌ دائـمُ الـدرِّ
وتبًّـا لأوقـاتِ المخَّـلل إنهـا تمرُّ بلانفـعٍ وتُحْسَـبُ من عُـمْرى
أهيمُ غراماً كلَّـما ذُكِـرَ الحـمى وليـس الحـمى إلا العطـارَةَ بالسـرِ
وأشـتاقُ إنْ هـبَّتْ نـسيمُ قطائفِ السحـورِ سحيراً وهـى عاطـرةُ النشـرِ
ولى زوجةٌ إن تـشتهى قاهـريَّةٌ أقـول لها : ما القـاهريةُ فى مصرِ (٣)

الـــدور :

كانت الدور المصرية بينة الفروق تبعا لاختلاف الطبقات الاجتماعية كما هى عليه الآن فى شتى الأقطار يحدثنا "الأدفوى" عن الدور فى مدينة قوص فيقـول "وبها قباب بأعالى دورها، قالوا:إن من ملك عشر آلاف دينار يجعل له قبة فى داره (٤) وبينما كانت قصور الخلفاء والأمراء والوزراء زاخرة بالتصاوير والنجف والفسيلات كانت بيوت الفقراء عامرة بالحشرات والقانورات. فقصور فيها من الحسن مايقصر عن مثله الوجود:

---

(١) الخريدة ، جـ ١ ، ص ٦٢ ، ٦٣
(٢) المرجع السابق :، ص ٦٢ ، ٦٣ . جنة السغب : شدة الجوع والجنون .
(٣) حسن المحاضرة ، للسيوطى ، جـ ١ ، ص ٥٦٨ .
(٤) الطالع السعيد ، ص ١٣ .

فـيكَ مـن الحـسنِ كلُّ معـنى يقصـرُ عن مثـلِه الوجـودُ

وقد أبدع عمارة اليمنى فى وصف قصور الخلفاء والأمراء ومافيها من مرمر ونافورات ولوحـات(١) .

ويثـير انتبـاه ظافـر الحداد مارآه فى قصـر أحـد حكام الإسكندرية، إذ وجـد غـزالا مستأنسا يربض ويجعل رأسه فى حجر الأمير فيتغنى بهذه الأبيات :

عجـبتُ لجـرأةِ هـذا الغـزالِ وأمـرٍ تخـطَّى لـه واعـتمدْ

وأعجـبُ به إذ أتـى جَـاثماً فكـيفَ أطمأنُّ وأنتَ الأسـدُ ؟ (٢)

وكان بعض المترفين يزينون مداخل قصورهم وحدائقهم بوضع سرج على الأشجار أو النخيل تضىء بالليل كما نفعل اليوم فى بعض الأماكن العامة.، يصف (ابن قلاقس) نخلة عليها زينة من أنوار السراج كالذى يتخذه المترفون اليوم فى أيام الحفلات الخاصة :

ما عـهْدنا النخـلَ لولا هـذه باسـقاتٍ بثـمارِاللُّهـب

هَطَـلَ الغـيثُ لهـا من فضَّـةٍ فـهى فى قنـواتِها من ذهـب

تلعـب السـرجُ على حـافاتِها وتحـاكى أنمـلَ المرتعـب

ولقـد أحسـبُها ألسـنةً هزَّهـا للسُّـكرِ خمرُ الطـرب (٣)

وفى بيت من بيـوت عامـة الناس يلتـقط ظافـر الحداد هذا المنظر الذى كـونه من البق والبراغيث والعنكبوت :

وللبـق فـيها والبراغـيثِ خلطـةٌ كبـزرِ قطـون ذر فـى حَبِّ سُـماق*

إذا ماأرانـين البعـوضِ تجـاوبتْ لنا وقَّعوا بالرُّقـصِ إيقاعَ حـذَّاقِ (٤)

---

(١) انظر هذا الكتاب ، ص ٦١٠ . وانظر وصف ابن قلاقس لقصر بنى خليف بالأسكندرية ، بدائع البدائه لابن ظافر ، ص ١٧٥ .

(٢) أ – ظافر الحداد ، د . حسين نصار ، ص ٣٩ .

ب – الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص ، حسن إبراهيم حسن ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ١٦٨ .

(٣) فى أدب مصر الفاطمية ، د . محمد كامل حسين ، ص ٢٩٩ .

* القطون حب من الحبوب التى تطبخ والسماق جنس أشجار تستعمل بنوره تابلا وأوراقه فى الدبغ

(٤) ظافر الحداد ، شاعر مصرى من العصر الفاطمى ؟ د . حسين نصار ، ص ١٣١ .

ولعل ظافرا نزل فى أحد الفنادق وبات فى حجرة صغيرة رافقة فيها عدد كبير من النزلاء فضاق بهم وضاقوا به :

وحجـــرةٍ مـــنْ عـــددِ القـــبورِ ... بتُّ بهـــا للقـــدرِ الضـــرورىِ
فـــى ليـــلةٍ مســـرفةِ الحـــرورِ ... كـــأرؤس الخـــرْفان فى التَّنُّـــورِ
أو كالبـــزاةِ الشُّـــهْبِ والصـــقورِ ... تفعـــلُ فـــى الأوجـــهِ والظـــهورِ
فعلَ رمـــاحِ الخـــطِّ فى النُّحـــورِ ... أصْـــوَاتُها فى الحَـــالِكِ الديجـــورِ
تشـــبهُ ماصـــاحَ من الناعـــورِ ... فـــلمْ نـــزلْ فى الويـــل والثبـــورِ (١)

الحمامات

يبدو أن الحمامات التى عرفتها مصر الإسلامية كانت أصغر حجماً من الحمامات التى عرفتها من قبل ، فقد أطلق المصريون على الحمام الذى أنشأه عمرو بن العاص حمام لفأر (٢) على طريقة المصريين فى استخدام النكتة فى التسمية . ورسم ظافر الحداد للحمامات فى مصر الفاطمية عدة صور تعكس لنا ماكان يحبه المصريون فيها ، وما كانوا يكرهونه منها ، وما إعتادوه فى تشييدها ، وألفوه عند دخولها فقد عنى المصريون فى ذلك العهد بتشييد الحمامات الرائعة التى قال عنها المقدسى : إلى حماماته المنتهى .. ولعل أجمع بيت لما أحبه ظافر فى الحمامات قوله :

روضة العين ، لذة العقل والحسن ، جلاء القلوب والأجسام

فلم يمدح حماماً إلا جعله روضة ، بل جنة ، بعض الأحيان ، تجتمع الملذات فيها والمسرات :

وروضـــــةٍ فـــى هجـــيرٍ ... وجـــــنَّةٍ فـــــى سعـــيرِ
خـــصَّـــتْ بكـــلِّ نعـــيـــمٍ ... ولـــــذَّةٍ وســـــرورِ

كما وصف زخارفها وحياضها بالصفاء وتعدد الألوان والزخرفة :

---

(١) ظافر الحداد ، شاعر مصرى من العصر الفاطمى . د . حسين نصار ، ص ٢٦٦ .
(٢) حسن المحاضرة ، للسيوطى ، جـ ١ ، ص ١٣٥ .

راقـــتْ حياضـــاً ، فاقـل القـــذى فيها كشمسٍ تحتَ غيـــمٍ رقـــيقِ
خُصـــتْ بألـــوانِ الرُّخـــامِ الـــذى لـــه بهـــا كـــلُّ طـــرازٍ دقيـــقِ (١)

ولم يكن ظافر وحده هو الذى أحسَّ بمساوىء بعض الحمامات فى ذلك العصر فالشاعر الناجى المصرى يشاركه الإحساس نفسه ويقول :

حمَّامُـــنا هـــذا أشـــدُّ ضـــرورةً ممـــن يحـــلُّ بـــه إلـــى حمَّـــامِ
تَبْيضُّ أبدانُ الـورى فـى غيـــرِه وَيُعيرُهـــا هـــذا ثـــيابَ سخـــامِ
قد كنتُ من سـامٍ فحـين دخلتـُـه لشقاء جدى رَنَّنـى مـن حـامِ (٢)

ويصف شاعر آخر الحمامات بالقذارة والظلمة والبرودة ، وقد أخطأوا فى تسميته حمَّاما وكان من الأولى أن يسمى حِماماً بالكسر :

حَمَّامُـــنا هـــذه حِمـــامٌ وإنَّـــما حُـــرِّفَ الكـــلامُ
تُجمعُ فـــى أوصافـــها ثـــلاث البـــردُ والنـــتنُ والظَّـــلامُ (٣)

وسائل المواصلات

استخدم المصريون وسائل المواصلات المعروفة فى العصور الوسطى وهى الدواب والبحر ، كما استخدموا النيل فى مواصلاتهم الداخلية . وأهم وسائل المواصلات وأسرعها الخيل ، وللخيل غايتان : فهى عدة القتال كما يصورها طلائع الأمرى . بقوله :

جنائبُ إنْ قيدت فأسدٌ وإنْ عـــدَت بأبطالها فـــهى الـــصَّبا والجنائـــبُ
أثارتْ بأكتافِ المصلـــى عجاجـــةً دجَتْ وبدتْ للبيضِ منها الكواكبُ (٤)

ويصفها « ابن الضيف » بسرعة العدو وتحديد الهدف فيقول :

كـــم ســـابحٍ أعـــدَدتهُ فوجـــدتهُ عـــندَ الكريهـــةِ وهـــو نسْرٌ طائرُ
لم يـــرمِ قـــطُّ بطـــرفهِ فـــى غايةٍ إلا وســـابقُه إليهـــا الحـــافرُ (٥)

---

(١) ظافر الحداد . د . حسين نصار ص ١٢٧ وما بعدها .
(٢) الخريدة ، جـ ٢ ص ١٠٣ .
(٣) الخريدة ، جـ ٢ ص ٧ .
(٤) ، (٥) فى أدب مصر الفاطمية ، د. محمد كامل حسين ، ص ٣٠٠ .

وهى أيضاً وسيلة السفر تسير على مهل طوراً وتعدو خفاقاً طوراً آخر وهذا أحد الشعراء يطلب من ممدوحه أن يعينه على الوصول إليه ويهديه فرسا حدد له سماته فى الأبيات التالية :

وأعنْ على سفرى إليـــك بأجْرِدٍ ... طـــــاوٍ يطيقُ بجريـه ميدانُه
جذلانَ ينفضُ مذرَوَيْه كما مشـــى ... للسكـــر طافحَ سلسل نشـــوانُه
يعود على مهلٍ فتحـــسبُ أنـــه ... بـــازٍ طوى بُعْد المـــدى طيرانُه
ويروحُ يومَ السَبْقِ مُجـريه علـــى ... ثقـةٍ بأنْ لـــه يُحاز رهـــانُهُ
والنفسُ تُوقِنُ أننى سأعـــودُ عـــن ... هذا المقامِ وفـى يدىَّ عـــنانُه (١)

وكما استخدم المصريون الوسائل البرية فإنهم استخدموا كذلك الوسائل البحرية والنهرية. ويبدو أن ركوب البحر أو النهر كان محفوفا بالمخاطر مما جعل كثيراً من الشعراء يعبرون عن خوفهم من ارتياد هذا الطريق (٢) .

الندوات الأدبية :

كانت الأديرة والمتنزهات العامة ملتقى الأدباء والشعراء بمصر منذ زمن الطولونيين وفى حكم الإخشيديين والفاطميين ، ولكن هذه الندوات ضعف سوقها أيام الأيوبيين ، وذلك لأنهم لم يشجعوا هذا النوع من اللهو ، فاتجه الأدباء إلى أماكن أخرى يتناشدون فيها الشعر ويتطارحون البداة ويتناولون بالنقد بعض ما يقولون (٣) .

وقد حدثنا ابن خلكان عن هذه الملتقيات الأدبية فى ترجمته للشاعر ابن سناء الملك الذى عاصر مجموعة من الشعراء المجيدين وكانت لهم مجالس تجرى بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها ويدخل فى ذلك الوقت إلى مصر شرف الدين بن عنين فاحتفلوا به وعملوا له دعوات وكانوا يجتمعون على أرغد عيش (٤) .

---

(١) الخريدة ، جـ ٢ ص ٥١ .
(٢) راجع هذا الكتاب ، ص ١٣٧ .
(٣) الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى ، محمود مصطفى ص ٢٨٠ .
(٤) وفيات الأعيان ، جـ ٢ ، ص ١٨٩ .

ونقل لنا "ابن شاكر" مجلسا لبعض شعراء مصر الأيوبيين كان فى مسجد من ليالى رمضان، وعندما وقد فانوس السحور اقترح بعض الحاضرين على الأديب أبى شجاع يوسف المنبوذ بالنعجة أن يصنع فيه شعرا وإنما طلب منه إظهارا لعجزه فصنع وأنشد.

ونجمٍ منَ الفانوسِ يشرقُ ضوءه ... ولكنَّه دونَ الكواكبِ لايسرى

ولم أرَ نجماً قطُّ قبلَ طلوعِه ... إذا غابَ ينهى الصائمينَ عنَ الفطرِ

قال على بن ظافر فانتدبت له من بين الجماعة وقلت له : هذا التعجب لا يصح لأنا قد رأينا نجوما لا تدخل تحت الحصر ولا تحصى بالعد إذا غابت تنهى الصائمين عن الفطر وهى نجوم الصباح فأسرف الجماعة فى تقريعه فصنع أيضا وأنشد :

هذا لواءُ سحورٍ يستضاءُ بِه ... وعسكرُ الشُّهبِ فى الظَّلماءِ جرَّارُ

والصائمون جميعاً يهتدون به ... كأنَّه علمٌ فى وسطِه نار

وصنع الفقيه القلعى :

وكوكبٍ منْ ضرامِ الزَّنْدِ مطلعُه ... تسرى النجومُ ولايسرى إذا رقبا

يراقبُ الصبح خوفاً أنْ يفاجئَه ... فإنْ بدا طالعا فى أفقِه غربا

كأنَّه عاشقٌ وافَى على شرفٍ ... يرْعَى الحبيبَ فإنْ لاح الرَّقيبُ خبا

ثم ذكر على بن ظافر أنه صنع وأن غيره صنع فى كلام طويل نكره « ابن شاكر »(١).

الأعياد الوطنية والدينية

أمدنا الأدب العربى بسجل حافل عن أعياد مصر القومية والدينية التى كانت تحتفل بها حكومة وشعبا فى عصر ازدهارها الأدبى وهى أعياد مختلفة المصادر متعددة النزعات تجمعت من جهات بعيدة أو قريبة، فبعضها يرجع إلى العصور الفرعونية كالاحتفال بوفاء النيل، وبعضها عرفته مصر من خلال احتكاكها بغيرها من الشعوب كعيد النيروز الذى أخذته عن

(١) فوات الوفيات ، محمد بن شاكر بن أحمد الكتبى جـ ٣ ص ١٠٨ القاهرة ١٩٤١ م .

الفرس وأمدتها المسيحية بأعيادها كعيد رأس العام وعيد الغطاس، كما أمدها الإسلام بعيدى الفطر والأضحى، واستحدثت الشيعة فى مصر أعيادا خاصة كيوم عاشوراء.

وأصبحت هذه الأعياد مظهرا من مظاهر مصر الاجتماعية ومجالا يستظهر فيه الحكام قوتهم تمكينا لنفوذهم، ومسرحا يتبارى فيه الكتاب بأقلامهم فينشئون الرسائل مهنئين ويزفون بها إلى سائر الأمصار مبدعين فى وصف ذلك اليوم وماجرى فيه. وكما كانت مهرجانا شعريا تلهج فيه ألسنة الشعراء بوصف اليوم ومديح السلطان، ويتلقى فيه المبدعون جوائزهم وعطاياهم(١).

وقد أشار (عمارة اليمنى) إلى كثرة الأعياد الوطنية والدينية فى مصر الفاطمية فى قصيدة رثى بها دولة الفواطم - فقال :

أبْكِي علَى مَاتَـراءتْ مِـنْ مكارِمكـم ... حالَ الزَّمانُ عليـهَا وهـى لـمْ تحـلِ
دارُ الضيافةِ كانـتْ أُنـسَ وَافدِكـم ... واليومَ أوْحشُ منْ رَسْـمٍ ومِـنْ طـلَلِ
وفطرةُ الصَّومِ إذْ أضـحتْ مكارمكـم ... تشكو من الدَّهرِ حيفاً غـيرَ محتـملِ
وكسوةُ الناسِ فى الفصْلَين قد درستْ ... ورثَّ مـنْـها جديـدٌ عندهـم وبلـى
وموسمٌ كان فـى يـومِ الخـليجِ لكـم ... يأتـى تجمُّـلكم فـيه علـى الجـملِ
وأوَّلُ العـــامِ والعيديـن كـم لكـم ... فيهنَّ مِنْ وَبْـلِ جودٍلـيسَ بالوشـلِ
والأرضُ تهتزُّ فـى يومِ الغديـرِ كمـا ... يهتزُّ مـابـيَن قصرَيْكُـم مـن الأسَلِ
والخيلُ تعرضُ فى وَشْيٍ وفى شيـةٍ ... مثل العرائسِ فى حَلْيٍ وفى حُلَلِ(٢)

الاحتفال بوفاء النيل :

لعل أقدم أعياد مصر القومية هو عيد وفاء النيل الذى علم المصريين أن يستقبلوه بالفرحة والبشرى فى أيام معلومة من العام، فيخرج السلطان والأمراء يسيرون فى موكب من

(١) ذكر المقريزى في خططه أعياد مصر الفاطمية تفصيلا انظر خطط المقريزى ، جـ ٢ ، ص ٣٨٤ .
(٢) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٣٩٣ .

الجنود ويتوجهون إلى باب اللوق ويلعبون الكرة ويحتشد الناس من كل فج يأكلون ويشربون ويمرحون ويشاركون فى مختلف الألعاب احتفاء بوفاء النيل. ويبدع كتاب الديوان فى إنشاء رسائل يزفونها إلى مختلف أقطار الخلافة تخبرهم ببلوغ الماء وارتفاعه واحتفاء السلطان وجنوده وشعبه، وتدعوهم إلى مشاركة مصر، فرحتها بإقامة مهرجانات مماثلة فى كل إقليم وقطر لتعم البهجة سائر الناس.

وهذه رسالة موجهة من الخليفة الفاطمى إلى واليه على "طرابلس" فى تلك المناسبة : "ولما كان يوم كذا ركبنا إلى الميدان السعيد فى أتم وقت أخذ من السعد بمجموعة وأظهر فى أفق العساكر من وجهنا الشريف البدر عند طلوعه، ولم نبرح يومنا المذكور فى عطاء نجيده، وإنعام نفيده، وإطلاق نبدئه ونعيده، والأولياء بين أيدينا الشريفة يمرحون، وفى بحار كرمنا المنيف يسبحون، وفى ميدان تأييدنا المطيف يسيحون والكرات كالشمس تجنح تارة وتغيب، وتخشى من وقع الصوالجة فتقابلها بوجه مصفر مريب، ثم عدنا إلى القلعة المنصورة على أتم حال، وأسعد طالع بلغ الأنام الأمان والآمال والعساكر بخدمتنا الشريفة محدقون، ومماليكنا بعقود ولائنا مطوقون، والرعايا قد ألبسها السرور أثوابا، وفتح لها من الابتهاج أبوابا، وقد أثرنا إعلام الجناب بذلك ليأخذ حظه من هذه المسرة والبشرى، ويشترك هو والأنام فى هذه النعمة الكبرى، ومرسومنا للجناب أن يتقدم بالركوب بمن عنده من الأمراء فى ميدان طرابلس المحروسة ويلعب بالكرة على جارى العادة فى ذلك ليساهم أولياء دولتنا القاهرة فى ذلك ويسلك من طرقهم الجميلة أجمل المسالك (١) .

ويرتبط بفرحة الوفاء للنيل احتفال آخر هو فتح الخليج وربما كان الاحتفالان فى يومين مختلفين فى بعض العصور ثم صار الاحتفال بهما احتفالا واحدا فيما بعد (٢).

ومهما يكن من أمر فإن الأدب العربى شعره ونثره سجل لنا مباهج الشعب واحتفاء السلطان ومساهمة الأدباء والشعراء فى الاحتفال بهذا اليوم.

يخاطب "عمارة اليمنى" الخليفة العاضد مهنئا ومادحا بيوم الخليج فيفضله على سائر الأعياد واصفا الماء أيام الفيضان وقد تكدر لونه، ثم يقارن بين عطاء النيل وعطاء ممدوحه :

(١) صبح الأعشى جـ ٨ ص ٣٣٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣٥ .

شرفـــت أميرَ المؤمنيـن مواسـمٌ ... أضحتْ تـؤرِّخُ باسمِـكم وتسـطّرُ

وأجـــلُّها يـــومَ الخليـجِ فإنَّـه ... مـــن بينـها يـومٌ أغـرُّ مُشَـهَّرُ

وافاكَ فيـه النّيلُ وهـو مـن الحيا ... خجـــلٌ يقـدِّمُ رجلَـه ويؤخِّـرُ

لـــولا تعـثُّرُهُ بأذيـالِ الثَّـرى ... ما كـانَ مـذروراً علـيه العـنْبَرُ

لـــوْ لـمْ تـغبَّر بالنَّـدى فـى وجهِـهِ ... مـــا لاح قـطُّ علـيه لـونٌ أغْـبَرُ

ولقَـــــدْ عدِمْنَـاه فَنُبِّـئتَ نيابـةً ... عَزَّ الغنىُّ بـها وأثْـرَى المعْـسِرُ(١)

وتطير الرسائل حاملة آيات البشرى مفصلة ماجاء فى ذلك اليوم، مطمئنة سائر الأقاليم بسلامة الموكب السلطانى ونجاح الاحتفال القومى.

وهذه رسالة موفدة من مصر إلى نواب السلطة بالممالك الشامية :

ولما كان يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا من شهور القبط بادرت إلى الوفاء شيمه ، وأغنت أمواجه عن منة السحب فنمت عندها ديمه ، وزار البلاد منه أجل ضيف فرشت له صفحة خدها للقرى فعمها كرمه، وبلغ من الأذرع ستة عشر ذراعا ورفع لواءه بالمزيد ونشر وجاء بأنواع البشر، فرسمنا بتعليق ستر مقياسه، وتخليقه وتوضيع أنفاسه، وفى صبيحة اليوم المذكور كسر سد خليجه على العادة، وبلغ الأنام أقصى الإرادة، وتباشر بذلك العام والخاص، وأعلنت الألسنة بحمد ربها بالإخلاص، وسطرها وهو بفضل الله ورحمته متتابع المزيد، بسيط بحره المديد، ومتجدد النمو فى كل يوم من أيام الزيادة جديد (٢) .

وعقب مراسيم الاحتفال بفتح الخليج يجلس السلطان فى مكان على النيل ويلتف من حوله عليه القوم ويتبارى الشعراء فى ذلك الميدان فيدلى كل بدلوه ويفوز أقدرهم بالجوائز والهبات. وهذه صورة لواحد من هذه المهرجانات :

توافد الشعراء على مجلس الخليفة الفاطمى فى تلك المناسبة. فتقدم شاعر يدعى (ابن جبر) وأنشد.

---

(١) ديوان عمارة اليمنى ص ٢٢ ، ٢٢٤ .

(٢) صبح الأعشى ، جـ ٨ ، ص ٣٣١ .

فُـــتِحَ الخليـجُ فسالَ منْـهُ المـاءُ وعَلَـــتْ عليـهِ الرَّايـةُ البيـضاءُ

فَصَـــفَتْ مـواردُه لنـا فكأنَّـــه كـفُّ الإمـــامِ فَعْرِفُـها الإعـطاءُ

فانتقد الناس قوله : فسال منه الماء وقالوا : أى شيء يخرج من البحر غير الماء ثم تقدم شاعر يقال له مسعود الدولة ابن جرير وأنشد :

مـــازالَ هَـذا الـسدُّ ينْـظُر فتـحَه إذنَ الخلـــيفةِ بالنَّـوالِ المرمَـلِ

حـــتى إذا بـــرزَ الإمـــامُ بوَجْـــهِهِ وسطا عليه كـلُّ حامـلِ معـولِ

فانتقد الناس عليه البيت الثانى، وقالوا : أهلك وجه الإمام بسطوات المعاول عليه، ومع أنه قصد فتح السد بالمعاول، ولكنه لشؤم طالعه خلط بين الضمائر، ثم تقدم شاعر ثالث يقال له "كافى الدولة أبو العباس" وقال :

لِمَنِ اجْتِـمَاعُ الخَـلقِ فـى ذَا المـشْهَدِ للـنِّيلِ أمْ لـكَ يابْـنَ بِـنْتِ مُحَمَّـدِ

أم لاجتماعِكـــما معـاً فـى موطـنٍ وافيتـما فـيه لأصـدقِ موعـدِ(١)

فنال إعجاب الحاضرين وهبات الخليفة :

وقد أخذ كل شاعر وكاتب بنصيب فى وصف النيل والاحتفاء بفتح الخليج "فابن الساعاتى" يتأمل كسر الخليج ويصف يومه بأنه يوم مشهود فيه مايرى ومايسمع ويشبه انحدار الماء إثر كسره بانحدار الدموع التى تفيض من ذوى القلوب المحطمة :

إنَّ يـــومَ الخليـجِ يـــومٌ مـــن الحسنِ بديـعُ المرئَـى والمسـموعِ

كَـم لَديـه مِنْ ليـثِ غـابٍ صـئولٍ ومهـــاةٍ مثـلِ الغـزالِ المـروعِ

وعلـــى الســـدِّ عـزَّةٌ قـبل أن تملـــكَه ذلـة المحـبِّ الخـضوعِ

كسَـــروا جـسْرَه هـناك فحاكـى كسرَ قلبٍ يتلـوه فيـضُ دمـوعِ (٢)

---

(١) المفصل فى تاريخ الأدب العربى ، أحمد أمين وآخرين ، جـ ٢ ، ص ٣٢ .

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى جـ ٢ ص ٣٨٨ .

وللقاضى الفاضل رسائل متعددة فى وفاء النيل كتبها عن السلطان صلاح الدين الأيوبى منها تلك الرسالة :

"نعم الله سبحانه وتعالى من أضوئها بزوغا، وأخفاها سبوغا، وأصفاها ينبوعا، وأسناها منفوعا، وأمدها بحر مواهب، وأختمها حسن عواقب النعمة بالنيل المصرى الذى يبسط الآمال ويقبضها مده وجزره، ويرمى النبات حجره ويحمى مطلعه الحيوان، ويجنى ثمرات الأرض صنوانا وغير صنوان، وينشر مطوى حريرها وينشر مواتها، ويوضح معنى قوله تعالى : وبارك فيها وقدر فيها أقواتها"(١).

الاحتفال برأس السنة :

احتفلت مصر بأول المحرم "بداية العام الهجرى" وكان الاحتفال رسميا وشعبيا وفى الأدب العربى عدة رسائل ديوانية تشير إلى احتفال المصريين بهذه المناسبة، ومنها رسالة نقلها القلقشندى من مذكرة أبى الفضل الصورى جاء فيها :

"الحمد لله الذى لم يزل يولى إحسانا وإنعاما، وإذا أبلى عبيده عاما أجدلهم بفضله عاما، فقد أمدكم معاشر (الخلفاء) كرما ومنا، وأتاكم من جوده أكثر مما يتمنى ومنحكم من عطائه مايوفى على ما أردتموه، (وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه) وقد استقبلتم هذه السنة السعيدة، وإذا عملتم بالطاعة كنتم مستنجزين من ثواب الله الأغراض البعيدة.

وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الذى غدت الجنة مدخرة لمن عمل بهداه لما سمعه ومهيأة لمن آمن به واتبع النور الذى أنزل معه، وبين بإرشاده ماتجرى أمور السنين عليه فى العدد والحساب، ونسخ ماكانت الجاهلية (تفعله) فيه زيادة فى الكفر وضلالا عن الصواب، وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى كمل الله الإسلام بإمامته : وضاعف الأجر لأهل ولايته، ومنح شيعته مقبول شفاعته. وعلى الأئمة من ذريتهما خلفاء الله على خلقه، والقائمين بواجب حقه لى والعاملين فى سياسة الكافة بما يرضيه سبحانه. ويضمن غفرانه ورضوانه،

---

(١) حسن المحاضرة ، للسيوطى ، جـ ٢ ص ٣٦٦ .

وسلم عليهم أجمعين، سلاما باقيا إلى يوم الدين. وإن أحق النعم بنشر الذكر، وأرحبها للوصف وأعمال الفكر، نعمة رفعت الشك وأزالت اللبس، ووضح ضياؤها لأولى الألباب وضوح الشمس، واشتراك الناس فتضاعفت الفائدة لديهم، وانتفعوا بذلك فى تواريخهم ومعاملاتهم وما لهم وما عليهم، وتلك (هى) المعرفة باليوم الذى هو مطلع السنة وأولها، ومبدؤها ومستقبلها"(١).

الاحتفال بعيد الأضحى :

ومن أعياد مصر الرسمية والدينية عيد الأضحى. وكان الخليفة يخرج فى موكب رسمى لأداء الصلاة، ويبعث بالتهانى إلى سائر الأقطار من ذلك ماكتبه ابن الصيرفى فى بعض هذه المناسبات.

"وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عيد النحر سنة كذا وكذا : وهو يوم أظهر الله فيه قوة الدولة واقتدارها، وأوجب فيه - رغبة ورهبة - مسارعة النفوس المخالفة إلى الطاعة وابتدارها، وذلك أن عساكر أمير المؤمنين توجهت إلى قصوره الزاهرة عند انفجار الفجر، وحافظت على ماتحرزه من كريم الثواب وجزيل الأجر، واستنزلت الرحمة برؤية إمام الأمة، وأعدت الإخلاص فى خدمته من أوفى الحرمات وأقوى الأذمة، وأقامت إلى أن برز أمير المؤمنين والأنوار الساطعة طوالعه، ومهابته تمنع كل طرف من استقصاء تأمله وتدافعه وقصد المصلى فى كتائب لحبى، ومواكب للتعظيم مستوجبة، وعزة تتبين فى الشمائل.. والصفحات، وقوة يشهد بطيب وصفها أرج النفحات، (٢) .

ويستلهم الشاعر "أبو الحسن بن حيدرة العقيلى" شعائر هذا العيد فى مجونه :

قُمْ فانْحرِ الرَّاحَ يومَ النَّحْرِ بالماءِ ... ولا تضحِّ ضحىً إلَّا بصهْبَاءِ

وعُجْ على مكَّةَ الروحاءَ مبتكراً ... فَطُفْ بها حول ركنِ العودِ والناءِ(٣)

---

(١) ، (٢) صبح الأعشى ، جـ ٨ ص ٣١٥ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر ، د . ط ٨ القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٠ ، ص ٤٨٦ .

الاحتفال بشهر رمضان :

وإذا أقبل شهر رمضان تبادل الناس الزيارات وأخذ الشعراء يزفون التهنئة إلى كبار الشخصيات فى الدولة، من ذلك ما كتبه ظافر الحداد إلى قاضى الإسكندرية الأفضل بن مكين الله بن حديد فى هذه المناسبة مهنئا :

شَهْرُ الصِّيامِ بكَ المهنَّا ... إذْ كانَ يشبهُ منكَ فنًّا

ما سارَ حولاً كاملاً ... إلا ليسرقَ منكَ معْنَي

فإذا مدحْنَاك احتقرْ ... نا ما نقولُ وإن أجدْنَا[1]

وتخرج المكاتبات من دار الخلافة المصرية واصفة الاحتفال برؤية هلال رمضان وثبوت رؤيته، وتهنىء المسلمين بصوم الشهر من ذلك ماكتبه "ابن الصيرفى" :

"الحمد لله كالىء خلقه فى اليقظة والمنام، والكافل لهم بمضاعفة الأجر فى شهر الصيام، وصلى الله على سيدنا محمد الذى بعثه رحمة للأنام، وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب، أخلص ولى، وأشرف وصى وأفضل إمام، وعلى الأئمة من ذريتهما الداعين الى دار السلام، صلاة دائمة الاتصال، مستمرة فى الغدو والآصال". وإن من المسرة التى تتهادى : والنعمة الشاملة للخلق جميعا وفرادى مامن الله به من ظهور مولانا وسيدنا الإمام فلان، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين يوم كذا غرة شهر رمضان من شهر رمضان من سنة كذا، وإعلاما بأول الشهر وافتتاحه، وإن الصيام الأول من فجره الأول قبل تنفس صباحه، وتوجهه إلى ظاهر المعزية القاهرة المحروسة فى عساكره المظفرة وجنوده، وأوليائه وأنصاره وعبيده، والمنة برؤيته قد تساوى فيها الكافة، وملائكة الله مطيفة حافة، وعودة إلى قصوره الزاهرة، وقد شمل المستظلين بأفيائه بسعادتى الدنيا والآخرة" [2].

وربما جاء رمضان يوم الاحتفال بفتح الخليج وهو يوم الشراب واللهو والمتع والطرب فماذا يصنع المصريون وهم ميالون إلى الأخذ بحظهم من المتع وفى الوقت نفسه حريصون على

---

(١) ظافر الحداد ، د . حسين نصار ، ص ٣٨ .

(٢) صبح الأعشى ، جـ ٨ ، ص ٣١٦ .

احترام الموروث من العادات والتقاليد وحب الدين واحترامه، يحدثنا المقريزى عن موقف كهذا فيقول :

"كان يوم كسر الخليج من أيام القاهرة وأعيادها يشترك فيه السلطان والأمراء والناس أجمعين : وفى تلك السنة اشتد إفراط الناس وغلبت المجاهرة بالمنكرات والإعلان بالفواحش ولم ينسلخ رمضان إلا وقد شهد مالم يشهده رمضان قبله فى الإسلام(١) .

ثم يتابع المقريزى وصف ذلك اليوم فيقول : "ركب العزيز وكثر المتفرجون وازدحم الغوغاء وحملوا العصى وتراجموا بالحجارة وفلقت أعين وخطفت مناديل وكانت العادة جارية بأن يوقر شهر رمضان من اعتصار الخمر ولايحدث نفسه أحد بفسخ الحرمة وهتك الستر وفى هذا الشهر غلا سعر الأعناب لكثرة العصير منها، وفيه كثر اجتماع الرجال والنساء على الخليج لما فتح، وعلى ساحل مصر، وتلوث النيل بمعاص قبيحة" (٢) .

وربما عكس لنا الشعراء إيثارهم المتعة والشراب على احترام العادات الدينية. وقد تجلى ذلك فى موقف أحد الشعراء المصريين عندما أخذ يهنىء أحد الحكام بحلول شهر رمضان فجعل التهنئة فى نظره يوم انسلاخ الشهر والعودة إلى التمتع بالطعام والشراب روى العماد عن الشاعر قمر الدولة أبى طاهر جعفر بن داوس المصرى أنه حضر مجلس مؤتمر الدولة بن صدقة والناس يهنئونه بشهر رمضان فقال قمر الدولة :

لا أهنّيك بالصِّيام لأنّى ... واثقٌ بالهناءِ يومَ العيدِ
بل أهنىء بالأكلِ والشُّربِ والزَّفْنِ وصوتِ الغنا وجسِّ العودِ
لابصومٍ يُجفِّفُ الكبدَ حتى ... يجْعلَ العودَ وهو مثلُ العودِ(٣)

عيد النيروز :

ومن أعياد مصر الوطنية عيد النيروز، وقد ظل هذا العيد بين المصريين منذ أخذوه عن الفرس حتى كانت الدولة الفاطمية، وفى عصرها تفنن المصريون بالمباهج والمرح بكثرة أعيادهم وتشجيع الخلفاء لهم ومشاركتهم فى كل هذه الأعياد.

---

(١) السلوك للمقريزى . جـ ١ ، ص ١٩١ ، هامش ص ١٠٩ من المصدر نفسه .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٦ .

(٣) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ٢٢٠ .

وقال (القاضى الفاضل فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة : وجرى الأمر فى النوروز على العادة من رش الماء، واستجد فيه هذا العام التراجم بالبيض والتصافح بالإنطاع وانقطع الناس عن التصرف، ومن ظفر به فى الطريق رش بمياه نجسة" (١) .

عيد الغطاس :

ومن أعياد مصر الدينية عيد الغطاس، وهو من أعياد النصارى يشاركهم فيه الشاعر تميم المعز لدين الله الفاطمى بأسلوب ساخر فهو يدعهم يقيمون شعائر ذلك اليوم ليمضى إلى ملذاته ويستبدل بالغطاس فى الماء الغطاس فى "باطية" عامرة بالشراب :

خـــلّ مـــنْ يأتـــمُّ بالصُّلـــــ ... بـــانِ يغـــدُو فـــى اختـــلاطِ
وأغـــدُ للصهـــــباءِ نســـقا ... هـــا ونســـــقى ونعاطـــى
غطســـوا فـــى المـــاءِ جهـــلاً ... وغطسْـــنا فـــى البواطـــى*
وشـــربْنـــاهـــــا عقـــاراً ... خـــندريـــساً بنشـــاطِ(٢)

كثرة الأعياد وعلاقتها بالشخصية المصرية :

لقد شغلت الأعياد المصرية حيزا غير صغير فى الأدب الفاطمى والأيوبى ولاسيما الرسائل الديوانية لكثرتها من جهة، واهتمام الحكام بها من جهة أخرى. ولعل كثرة الأعياد المصرية فى تلك المرحلة ترجع إلى الأسباب التالية :

---

(١) السلوك للمقريزى جـ ١ . هامش ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢) ديوان تميم المعز لدين الله الفاطمى ، تحقيق محمد حسن الأعظمى ، ص ٢٥٨ . * البواطى : جمع باطية : وهى إناء عظيم من الزجاج يملأ بالشراب ويوضع بين الشاربين يغرفون منه . يقول شهاب الدين النويرى عن عيد الغطاس إنه يكون فى الحادى عشر من شهر طوبه ، ويقولون إن يحيى بن زكريا وينعتونه بالمعمدان غسل عيسى عليه السلام فى بحيرة الأردن ، ويزعمون أن عيسى عليه السلام لما خرج من الماء اتصل به روح القدس على هيئة حمامة ، والنصارى يغمسون أولادهم فيه ووقته شديد البرد نهاية الأرب ، السفر الأول ، النويرى ، ص ١٩٢ .

أولا : وفرة الموروث والمستحدث : فللمصريين حضارات قديمة ورثت عنها بعض الأعياد، ومن بين حضاراتها الدينية أعياد مسيحية، ثم جاءها الإسلام فلم تمنع سماحته ولارحابة صدور المصريين من أن يجمعوا بين الأعياد المسيحية والإسلامية فى مصر، ثم أتاها الفاطميون بأيام جديدة فاتسعت لها مصر مكانة بين أعيادها، وهكذا كان البعد الحضارى سببا فى وجود كثير من هذه الأعياد.

ثانيا : موقف الحكام : فقد كان الحكام يشجعون ويشاركون لعدة أسباب منها :

١ – التقرب إلى الشعب المصرى : ولاسيما بعد استقلال مصر استقلالا ذاتيا وماتبع ذلك من محاولة حكامها الاعتماد على شعبها لتدعيم سلطانهم، وقد استلزم هذا التقرب عدم محاربة الشعب فيما تعوده من الاحتفالات الوطنية أو الدينية.

٢ – انتهز الفاطميون فرصة اهتمام المصريين بالأعياد وراحوا يبثون من خلالها عقائدهم ومبادئهم ممثلة فى أيام يقترن فى بعضها الاحتفال بالتوسعة والمرح وفى غيرها بإظهار الأسف والحزن كيوم عاشوراء.

٣ – نجح الفاطميون فى اجتذاب المصريين إلى أعيادهم بما أحاطوها من مظاهر الإسراف والمبالغة فى الزخرف والترف، لأنهم عرفوا حب المصريين لما فيه مبالغة والمبالغة مطلب الفاطميين، لأنها سبيل الغموض والإخفاء، فكأن المبالغة لفائف تختفى فيها الشعائر والمبادىء والأهداف.

ثالثا : طبيعة المصريين، وقد أثرت هذه الطبيعة فى كثرة الأعياد من عدة زوايا :

١ – فقد اعتلى بعض المسيحيين فى الدولة مناصب كبيرة، واهتموا بأعيادهم ولم يجد إخوانهم المصريون من ذوى الأصول القبطية غضاضة فى مشاركة إخوانهم بأعيادهم المسيحية، ونظر كل منهم إلى بعض الأعياد الموروثة كوفاء النيل أو النيروز على أنها أعياد مشتركة بينهما، ثم أحيا المسلمون أعيادهم الدينية، وهكذا التقى الجميع على الجمع بين هذه الأعياد.

٢ – الطبيعة المصرية مرحة، وكانت هذه الأعياد كما صورها الأدب مهرجانا للمرح واللعب وتناول الأطعمة واقتراف الملذات، وحتى ماكان يسوده الحزن ليس ببعيد

عن هوى الشخصية المصرية فهى شخصية عاطفية واو وليست أو الحزن يمثل جانبا فيها.

٣ – المظهر الجماعى فى الأعياد، وهو مظهر يستهوى المصريين ويندفعون إليه، كما لاحظ الأستاذ العقاد أن بائع الحلوى الذى يغنى ويزمر ينتهى من بيعها قبل زميله الذى لا يقوم بذلك الأداء.

مظاهر اللهو والمجون

أخذت حياة اللهو والمجون مكانا بارزا فى الأدبين الفاطمى والأيوبى، وذلك لانتشارها فى المجتمع المصرى وتعدد مظاهرها.

وكان من العوامل التى ساعدت على وضوحها ظروف الحياة الاجتماعية وتأثير الحروب الصليبية.

وقد صور أدب اللهو والمجون بعض ملامح الشخصية المصرية من خلال عدة مظاهر :

١ – الدعوة إلى المتع والملذات.
٢ – وصف الخمر ومجالسها
٣ – وصف أماكن اللهو
٤ – الغزل بالغلمان.
٥ – الفحش فى تصوير العلاقة بالمرأة.
٦ – مجالس الحشاشين.

الدعوة إلى المتع والملذات :

منذ العصور الجاهلية والشعراء هم قادة الناس إلى اقتراف الملذات، وفى العصر العباسى حمل أبو نواس وعصبته الماجنة لواء المجاهرة بهذه الدعوة.

وفى الأدبين الفاطمى والأيوبى نداءات إلى التمتع واللهو رددها الشعراء المصريون فابن النبيه يدعو إلى الحرص على اغتنام الفرصة للتمتع بالشراب. فالعمر كالكأس يروق أوله ثم يمج آخره :

خذْ مِنْ زمانِك ما أعطاكَ مغْتنماً ... وأنتَ ناءٍ لهذا الدهرِ أمرُه
فالعمرُ كالكأسِ تُسْتَحلى أوائلُهُ ... لكنَّه ربَّما مُجَّت أواخِرُه(١)

(١) ديوان ابن النبيه المصرى ، ص ٩٤

ويتمادى ابن النبيه فى دعواه مهونا من شأن الذنوب مهما عظم أمرها :

واجسُرْ علَى فرصِ اللـذّاتِ مُحْتَـقِراً عظيمَ ذنْـبِك، إنَّ الـلـه غافـره (١)

ويعتز أحد الشعراء بأنه ممثل الشريعة النواسية فى مصر، مسئول عن إقامة شعائرها من هيام بالغلمان وتغزل بالحسان وإدمان الدنان :

أنَـا نائـبُ الشـرْعِ النُّواسـى دعتـى وباطيتِـى وكاسِـى

أهـوى الغزالَـةَ كاعبـاً وأهـيمُ بالظَبـى الخُمَاسِـى

مـن كـلِّ معـتدلٍ رشـيقِ القـدِّ ممـشوقٍ خلاسـى (٢)

وينادى البهاء زهير صاحبه أن يبكر بالصبوح التى وصفها بأنها رائقة كالنسيم، معتقة لم يفض خاتمها، فقد عتقها المجوسى حتى غدا لها قدر عظيم عنده، وتعبد رهبان الدير حولها، ومع ذلك فهى رخيصة السعر وإن كانت عظيمة القدر والقيمة :

رَقَّ فـى الجـوِّ النَّسـيمُ فتَفـضَّلْ يـانديـمُ

وكـأنَّ الفـجْرَ نـهرٌ غرقـتْ فـيه النجـومُ

فاجـلِ بالصَّـهْباءِ لـيلاً بقيـتْ منـه رسـومُ

واسـبقِ الـشمسَ بشمـسٍ لاتُـواريهـا الغيـومُ

قـهوةً رقَّـتْ فـما فـى كأسِـها الا نـسيمُ

بنـتُ كـرْمٍ لـمْ يـفُزْ قـطُّ بِهـا إلا الكريـمُ

وعلـى طينتِـها مـن سالـفِ الدَّهْـرِ ختـومُ

لـمْ يَـزَلْ عـنْدَ المجـو سـىِّ لـها قـدرٌ عظـيمُ

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٥ .

(٢) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ٥٧ .

ولـــها الـــــراهـــبُ فـى الديْـــرِ يصـــلّى ويصـــومُ

وقلـــيلٌ كـــلُّ مـــا يطلـــبُ فيـــــها ويـــــسومُ (١)

وصف الخمر ومجالسها :

والحديث عن الخمر قاسم مشترك بين جميع الشعراء المصريين فى هذه الفترة وصفوها وصفا ينم على تجاربهم الحقيقية معها، وإن كنا نلاحظ تشابها كثيرا بين وصفهم الخمر ومجالسها مع مارنده أتباع أبى نواس، فابن النبيه يدعونا الى التبكير بالصبوح ويصف لونها وتغيرها عند امتزاجها بالماء :

قُمْ فاصطبحْ من شمْسِ كأسِك واغتبقْ بكواكبٍ طلعتْ من الكَسَاتِ

صفراءَ صافيةٍ توقّد بردُها فعجبتُ للنّيران فى الجنّاتِ

ينسلُّ منْ قارِ الظروفِ حبابُها والدُّرُّ مجتلبٌ من الظلماتِ

وتريك خيطَ الصُّبْحِ مفتولا إذا مرقت من الراووق فى الطاسات

عذراء واقعها المزاجُ أما ترى منديلَ عذرتِها بكفِّ ساقِهِ؟ (٢)

ويتأمل "النجيب أبو المكارم" خمره المعتقة وقد لاح من الدن نورها يسطع كالشمس قائلا :

ومحجوبةٍ فى الدّنّ قدْ كانتْ الأُلـى

قديماً أعدّتها لصرفِ همومِها

يلوح من الكاساتِ ساطعُ نُورِها

كشمسٍ تبدّتْ منْ فتوقِ غيومِها

---

(١) أ – البهاء زهير . د . عبد الفتاح شلبى ، ص ١٠٣ .

ب – شرح ديوان (بهاء الدين زهير) ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٢) ديوان (ابن النبيه المصرى) ، ص ١٢٤ .

ولستَ تَرى إلاَّ شُعاعاً وإنما
يدلُّ عليها نَغمةٌ من نَسيمها(١)

ويتأمل شاعر آخر حركة احتساء الكأس وعودة امتلائه من يد الساقي فيصور فقاقيعها بعقد قد ارتسم فوق الكأس ثم أخذت صورته تتضاءل في قاع الكأس عند احتسائها وكأن صورة العقد وقعت ساجدة، فإذا عادت الكأس إلى الامتلاء تلاشت تلك الفقاقيع وتبددت الصورة:

وكمْ ليلٍ جلوتُ الكأسَ فيه وقدْ نَظَمَ الحَبابُ له عُقُودا
ونادمْتُنا به صوراً إذا ما احْتَساها شاربٌ وقعتْ سجُودا
يُلبسُها المديرُ لها برُوداً فيُسلبُ شربُها تلك العقودَا(٢)

وصف أماكن اللهو:

كانت الأديرة مكانا للمتع والشراب، وما أكثر هذه الأديرة التي تغنى فيها الشعراء المصريون وغيرهم من زمن بعيد(٣).

يحدثنا تميم بن المعز الفاطمي عن صبواته في دار القصير مع رفاقه طلاب القصف والشراب الذين يطيب له أن يخلع معهم نقاب العذار ليصل متعة الليل بالنهار:

كَمْ بديرِ القُصَيْرِ لي مِنْ بكورٍ ورواحٍ على الصَّبا والعَقارِ
حيثُ أخلُو بِما أحبُّ من القصْفِ قليلُ الوقارِ لستُ أدارى
كم صَبُوحٍ شَدَدْتُه بغبوقٍ وظلامٍ وصلْتُه بنهارِ
إنَّما العيشُ أنْ تروحَ عشيًّا قاصفاً عازفاً خليعَ العذارِ(٤)

---

(١) الخريدة، جـ ٢، ص ١٥٤.
(٢) المرجع السابق، ص ٥٥.
(٣) راجع هذا الكتاب ص ١٠٧ وما بعدها.
(٤) ديوان تميم بن المعز لدين الله تحقيق محمد حسن الأعظمي، ص ٢٣٥. ودير القصير على رأس جبل مشرف على النيل قرب حلوان.

وكانت الأديرة منتشرة فى أرجاء مصر. ففى أقصى الصعيد كان ديرقنا مرتادا للهو والملذات، يقول عنه "ابن جهور" :

يـــامنـــزلَ اللّهـوِ بدَيـرِقـنا ... قلبى إلـى تلـك الرُّبـى قـد حـنا

سُقيـــــاً لأيامـك لمَّـا كـنا ... نمتـــــارُ منـــك لـذَّةً وحسـنا

أيـــــام لا أنعـــم عيـش منـــا ... إذا انتشـــينا وصحونـا عدنـــا(١)

وما أكثر أماكن اللهو التى تردد عليها المصريون يطربون ويرقصون ويشربون وقد شغفوا بالبرك وراحوا يبحثون عنها فى كل مكان فإن لم يجدوها فى بقعة حازت إعجابهم وطاب لهم التنزه إليها حفروها فيها وجلبوا إليها الماء وأقبلوا على الخروج إليها جماعات فى المواسم وفى غيرها، يقضون عندها الأيام الطوال والقصار فى فنون اللهو وصنوف السمر ويستحثون الشعراء على النظم : من ذلك ماروى أن أبا البركات بن عثمان أخذ وردا أحمر وألقاه فى البركة وطلب من رفيقه ظافر أن ينظم شيئا فيما رأى فقال :

وساعـــــةٍ جـــادَ بهـــا العمـــ ... ر نـــــام عـــن خلســـتها الدهـــرُ

والطيـــرُ والـدولابُ يشـدو لـــنا ... كمطـــــــرب يتبعـــــه زمـــرُ

والـــوردُ فـــوقَ المـــاءِ مـــابينـــنا ... قـــد نُثِـــرَتْ أوراقـــه الحـــمرُ

لـــم تـــرعيـــنى منظـــرا مثلـــه ... مـــاء تلظـــى فوقـــه جمـــر(٢)

وانتشرت على شواطىء النيل وخلجانه أماكن المتع التى كان يغشاها جماعات الشعراء يصف "البهاء زهير" واحدا من هذه الأماكن العديدة ومافيه من عيش رغيد ويستغفر ربه عما اقترفه هناك من الملذات :

حبَّـــذا دورٌ علـــى النِّـــيل ... وكاســـــــاتٌ تـــــدورُ

ومســـــرَّاتٌ تعـــوجُ الـــ ... أرض منـــــــها وتمـــورُ

---

(١) الطالع السعيد ، هامش ، ص ١٢ .

(٢) ظافر الحداد ، د . حسين نصار ، ص ١١٣ .

وقصـــــــورٌ مـــالعيـــشِ نلتُـــــه فـــــيها قـــصورُ

كـــمُ بِهَـــا قَـــدْ مـرُلـــى أستغفـــر الـلـــهَ ســـرورُ

كـــــل عيـــش غـــير ذاك العيـــشِ فـــى العالـــم زورُ

منـــــزلٌ لـــيس عـــلى الار ضِ لـــــه عـــندى نظـــيرُ(١)

ويقدم لنا "البهاء زهير" فى إحدى قصائده صورة كاملة من حياة المصريين فى هذه الفترة وخروجهم للتنزه على اختلاف طبقاتهم، العابد والفاسق كل ينشد من التنزه مايريده، ولكل نصيب، فعطاء الطبيعة المصرية وحياة شعبها يمنحان كل طالب مبتغاه :

نزلنـــا شاطـــىء النـــيل علـــى بســـط الأزاهـــيرِ

وقَـــدْ أضحَـــى لـه بالـمو ج وجْـــهُ نو أساريـــرِ

وفـــى الشَّـطِّ حـبابٌ مثـلُ أنصـــافِ القوارِيـــرِ

تسابقـــنا إلـــى اللهـوِ وواتينـــا بتبكـــيرِ

وفيـــنا ربُّ محـــرابٍ وفيـــنا ربُّ ماخـــورِ

ومـــن قـــومٍ مساتيـــر ومـــن قـــوم مساخـــيرِ

ومـــن جـــدٍّ ومـــن هـــزلٍ ومـــن حـــقٍّ ومـــن زورِ

فطـــوْراً فـــى المقاصـــير وطـــوْراً فـــى السَّاكـــيرِ

وينحاز الشاعر إلى طائفة المتمتعين بجمال الطبيعة وشرب الخمر يحتسونها فى هذا المكان البهيج مع أنغام الشحارير وصوت النواعير :

عـــلا حـــسُّ النواعـــيرِ وأصـــواتُ الشَّحاريـــرِ

وقـــد طـــابَ لـــنا وقـــتٌ صفـــا مـــن غـــيرِ تكديـــرِ

---

(١) البهاء زهير ، د . عبد الفتاح شلبى ، ص ٩٩ .

قـــقم يـــا ألـــفَ مـــولاى أدِرهـــا غـــير مأمـــورِ
وخذْهَـــا كالدُّنانيـــر علـــى رَغْـــمِ الدُّنانـــيرِ
أدرْهـــا مـــن ســـنا الصبحِ تـــزد نـــورا علـــى نـــورِ
عقـــاراً أصبحت مـــثل هبـــاء غـــير منـــشورِ
بـــدت أحـــسنَ مـــن نـــارٍ رأتْهـــا عـــينُ مقـــرورِ(١)

الغزل بالغلمان :

ارتبط بالحديث عن الخمر ومجالسها حديث أدباء هذه الفترة عن سقاتها وما يتمتعون به من جمال ودلال وظرف، وقد أعجب "ابن النبيه" من ساقيه بطول القامة وضخامة الردفين والتخنث فى الحركات ونعومة شعره المنسدل على جبينه.

يسعى بها عبلُ الـروادف أهيـفُ خَنثُ الشَّمائـل شاطـرُ الحركـات
يهـوى فتسبـقه نوائـبُ شـعرِه ملْتَفَّـةٍ كأسـاورِ الحيَّات

ومرة أخرى يوضح الشاعر شدة بياض وجه ساقيه مع شدة سواد شعره وترنحه فى مشيته وقد نحل خصره واكتنز عجزه :

سـاق كـأنَّ جبينَه فـى شـعرِه قمرٌ تبلَّـجَ فـى اللَّيالـى السُّـودِ
غصنٌ ترنَّـح ردفـهُ فـى خصـرِه فعجبتُ للمعدومِ فـى الموجـودِ(٢)

ويزيد فى وصف عينيه الدعجاوين وشفتيه المعسولتين وزينته التى ارتسمت من المسك على هيئة خال فوق جبينه :

وضـاحُ درِّ الثغـرِ معسـولُ اللَّـمى متضايقُ الأجـفانِ رحـبُ الجـيدِ
يلـوى علـى زردِ العَـذَارِ دلالـه كـم فتنـةٍ بـين اللـوى وزرود
نبتت على الكافـور مسكـةُ خالـه والمسكُ ينبتُ فـى الظِّبـاء الغـيدِ(٣)

---

(١) البهاء زهير ، د . مصطفى عبد الرازق ، ط ١ ، القاهرة : دار الكتب المصرية ١٩٣٠ ص ٨٣ ، ٨٤
(٢) ديوان ابن النبيه المصرى ، تحقيق عمر محمد الأسعد ، ص ١٢٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٤١ .

ولعل ابن النبيه يتغزل فى غلام تركى الذى وصفه بعينين دعجاويتين أما الشاعر "أحمد بن بلال" المعروف بدنقلة فإنه يتعزل فى غلام نصرانى يدعى ابن النحال. ويحدثنا عما أصابه من ضنى وتحول بسبب هيامه به، ثم أخذ يصور لنا مفاتنه وقد تقلد الصليب وربط على خصره زنارا أبرز حسنه، وقد أحس الغلام جماله فراح يتيه دلالا على شاعره :

نحولى من بنى النحّال بادٍ ببدر لَقَّبُوهُ أبا سعيدِ
تقلّد بالصليب ومرّ يسعى إلى قربانه فى يوم عيدِ
ولاث بذلك الزُّنّارِ خصرا حكى فى سقمه جسم العميدِ
سألتُ وصالَه فأبى دلالا ومر على كالظبى الشرود
وقال إذا عشقتَ البدر فاقنع إليه برعى طرفك من بعيد(١)

وافتن الشعراء فى وصف الغلمان ومفاتنهم الحسية والمعنوية، فتحدثوا عن الجيد والعينين والخدين والردفين والرقة والظرف والدلال، كما يعبر عن ذلك "ابن قتادة المعدل المصرى :

أسباك منه جيدُه أم طرفُهُ أم شكلُه أم دلُّه أم ظرفُهُ
ياناظرى أم وَرْدُ وجنته الذى يلتذُّ للعينِ البصيرة قطفُهُ
صافحته فشكت أنامله الأذى وتألّمت من لمس كفى كفُّهُ
فكأنّ جسمى جفنه من سقمه أو خصره وكأنّ همى ردفُهُ(٢)

ويلاحظ على النماذج السابقة أنها لاتختلف عما ردده أتباع "أبى نواس" ولم تبرزلنا جانبا خاصا بملامح الشخصية المصرية إلا ماتعكسه هذه الأشعار من أن الغزل بالمذكر كان سمه المجتمع المصرى فى تلك الفترة، ولكن الشاعر "أبا الفخر الأسوانى" يقدم لنا وصفا تنعكس عليه سمات الحياة المصرية. فقد اتخذ الفاطميون من يوم عاشوراء يوما حزينا يرتدون فيه السواد تبدو فيه الهيبة والوقار. ومع ذلك فإن الشاعر المصرى الماجن يشد انتباهه فى ذلك

(١) ، (٢) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١٥٦ ، ٢٢٩ .

اليوم منظر غلام لبس ثوبا من الصوف فأخذ يغازله :

أيا شادنا قد لاح في زيِّ ناسكٍ ... فباح بمكنون الهوى كلُّ ماسكِ

رويدَك قد أعجزتَ مايعجز الظبا ... وأضرمتَ نيرانَ الجَوَى المستدارِكِ

أنحن فتكنا يابن بنت محمد ... فتثأر منَّا بالجفونِ الفواتكِ ؟ (١)

وإذا كان بعض شعراء مصر تغزل بالغلمان من سقاة الخمور، وإذا كان بعضهم الآخر هام عشقا بهم ، ووصف مفاتن جمالهم، فإن فريقا ثالثا راح يمارس العشق تجربة ومباشرة جنسية. فابن سناء الملك يخبرنا عن ليلة من ليالي الوصال التي استمتع فيها بلثم الخدود ونال ما نال حتى مر الليل، وعندما مضى غلامه أخذ يمحو أثر خطوه بالقبلات لابسحب الذيل :

ظبيٌ بحسماء حالي الجيد بالعطَلِ ... لكنَّه قد جلاه الحسنُ في حللِ

ونلت مانلتُ مما لا أهم به ... ولاترقَّت إليه همَّةُ الأملِ

ومَرُّ اللَّيل قد غارت كواكبه ... لما نوى الصبح تطفيلا على الطفلِ

لم أسحبِ الذَّيلَ كي أمحو مواطئَه ... لكنني قمت أمحو الخطوَ بالقبلِ(٢)

وأبو الفخر الإسناوى يحدثنا عن علاقته بغلامه الذى يزعم أنه تعفف به عن اللواط والزنى. ولسنا ندرى بماذا يصف العلاقة التي كانت بينهما، والتي كانت سبب عفة الشاعر ؟!

لي شادنٌ هو أدنى ... إليَّ مُذْ كان منِّي

به تعفَّفتُ عمَّا ... يصمُ بالعذلِ أذني

لأنَّه صان عرضي ... عن أن ألوط وأزني (٣)

ويصف هذا الشاعر مواضع الفتنة في غلامه، ويركزها في ضخامة الردفين :

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٠ .

(٢) الخريدة ، جـ ١ ، ص ٨٥ . الطفل : آخر الليل عند الشروق .

(٣) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١٦٠ .

كثيبُ رملٍ فوقه صَعْدةٌ من فوقها بدر تمام أطلْ

إنْ كان منْ سواك لا عابثا فأنت مخلوق لذاك العمل

ولم يكن ردفك وعص النُّقا إلاّ لأن تتركز فيه الأسل(١).

ويتغزل النظام المصرى فى غلام نحوى، فيقول :

قمر فى حلقةِ النحو مرعى ونبتُ

كلما أقبل يختال إلى الحلقة قلت :

ليتنا ظرفا مكان أنا فوق وهو تحت(٢)

وقد تبذل الأدباء فى محبينهم مما دفع العماد الأصفهانى ألا يثبت هذا الشعر فى خريدته واكتفى بذكر نماذج قليلة منه.(٣).

الفحش فى تصوير العلاقة بالمرأة :

واتخذ الفحش مظاهر مختلفة كان من أوضحها الغزل الحسى، بالمرأة فأحد الشعراء يصور لنا ليلة قضاها مع حبيبته فى العناق والضم بين الرياض وقد تجاوبت معهما عوامل الطبيعة فالرياض تبدى له من أسرارها معانى دقيقة فتتولاها الريح بالتفسير والشرح :

وليلةٍ بات فيها البدرُ يفضحُنا غيظا على قمرى إذ باتَ يفضحُه

والرَّوضُ يبدى إلينا من سرائرِه معنى يدقُّ ولفظُ الرِّيح يشرحُه

وقد تناهى بناضيقُ العناقِ إلى حدٌ كمطبقِ الجفنين أفسحُه

كأنما قصدُ قلبينا لقاؤهما دون الوسائطِ فى أمرٍ نصحِّحُه(٤)

وهذا شاعر آخر يبيت ليلة مستمتعا بمحبوبته وقد نامت على عضده فيقبلها تارة

---

(١) الخريدة . جـ ٢ ، ص ١٦٠ ، وعص : كثيب الرمل المجتمع .

(٢) ، (٣) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ ، ص ١١٨ .

(٤) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١٢ ، ٤ .

obeikandi.com

ويشعرها فعل الهوى تارة أخرى،

وبت ألثمها طورا وأشعرها

فعل الهوى بي وقد نامت على عضدى(١)

أما عمارة اليمنى فيفصح عن أمانيه التى يطمع فى تحققها عندما ملأ بيته بالحسناوات:

فهذه بدرُتمٌ وهذه غصنُ بانِ

أنور من ذى إلى ذى وليس عندى توانِ

قسمتُ قسمةَ عدلٍ والعدل فى الحبِّ شانى (٢)

مجالس الحشاشين :

انتشر شرب الحشيش فى البيئة المصرية فى أواخر القرن السادس الهجرى . ولعل الصوفيين الذين كثر قدومهم إلى مصر فى عهد صلاح الدين هم الذين أتوابها من بلاد المشرق فى خراسان والعراق، وكان فى بستان الكافورى بمصر مزرعة مشهورة للحشيشة الجيدة، فالشاعر زين الدين أبو عبد الله بن أبى بكر الحنفى يمدح الحشيشة فيصفها بخضرة اللون وينسبها إلى البستان الكافورى ، وأنها تفعل فى العقول ماتفعله الخمر المعتقة ، وأن رائحتها تدب فى الأعضاء والمفاصل، وأنه غنى بها عن شرب الخمر، وأنه ليس فى حاجة إلى أن يرتدى أجمل ملابسه بل يستعيض عنها بالدلق الذى تعود الصوفى ارتداءه :

وخضراءَ كافوريةً باتَ فعلُها بألبابنا فعلَ الرَّحيقِ المعتَّقِ

إذا نفحتنا من شذاها بنفحةٍ تدبُّ لنا فى كلِّ عضوٍ ومنطقِ

غنينا بها عن شرْب خمر معتَّقٍ وبالدُّلقِ عن لبْس الجديد المزوَّقِ(٣)

---

(١) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ١٢ ، ٤ .

(٢) ديوان عمارة اليمنى : ص ٣٨٣ .

(٣) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين د . محمد كامل حسين ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١١ .

وكما دعا الأدباء سقاة الخمر أن يناولوهم الكئوس دعا شُرّاب الحشيش جلساءهم وندماءهم إلى شربها :

أعطِنى خضراءَ كافوريّةً ... يُكتبُ الخمرُ لها من جنْدِها

أسكرْتنَا فوقَ ماتُسكِّرنا ... وربْحنا أنفسَنا من حدِّها(١)

وقد اختلفت صورة الحشيش فى الشعر المصرى حسنا وقبحا نظرا لاختلاف أمزجة المصريين فمنهم من ذمها وقبحها ، وفضّل الخمر عليها وراح يعدد عواقبها الوخيمة ، فالحشيش فى نظره تفضى إلى البغاء أو الجنون أو مرض آخر من الأمراض العقلية :

لحَا اللّهُ الحشيشَ وآكليها ... لقد خَبُثَتْ كما طابَ السُّلافُ

كما تُسْبى كذا تُضْنِي وتُشْقِي ... كما يُشقى وغايتها الخرافُ

وأصغرُ دائِها والداءُ جمٌّ ... بغاءٌ أو جنونٌ أو نشافُ(٢)

وذهب آخرون إلى تفضيلها على الخمر ، وعددوا مميزاتها وفوائدها: فالحشيشة يتعاطاها الشاربون جهارا فى المساجد والربط، وسعرها رخيص فى متناول الأيدى ، ولونها أخضر يحاكى لون الجنة، وهى تشدُّ انتباه متعاطيها فتذكرهم بأسرار الجمال وتقوى أحاسيسهم نحوه، ولايعاقب عليها الشرع أو القانون ولاتحول أيام العبادة دون تعاطيها ، ولها فوائد طبية حيث تسهل الهضم :

وحقّك ما بالخَمْرِ بعضُ صِفاتِها ... أتُشْربُ جهراً فى رباطٍ ومسجدِ

عليك بها خضراء غير ممانع ... بأبيضِ ورق أو بأحمر عسجدِ

ولكنْ على رغم المدام هديةٌ ... تنزه عن بيع بغير التزهد

رياضية يحكى الجنانَ أخضرارها ... وخمرهم كالمارج المتوقدِ

مدامهم ينسى المعانى وهذه ... تذكّرُ أسرارَ الجمالِ الموحِّدِ

وتخلص من إثمٍ وحدٍّ ولاترى ... ذليلا وتنجو من نديم معربدِ

وتشربُها فى العسرِ واليسرِ دائماً ... ولا تتّقى فيها ليالىِ التعبّدِ

---

(١) ، (٢) دراسات فى الشعر فى عصره الأيوبيين د . محمد كامل حسين ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١١ .

ومن فضلها فى الطبِّ جودةُ مضمِها وهَيْهاتَ يُحصى فضلُها لمعدِّد(١)

والحشيشة تبعث فى النفس المرح والسرور والشعب المصرى يميل إلى المرح والسرور فانتقلت من الصوفيين إلى عامة الناس فأقبلوا عليها، وأحس الملك الصالح نجم الدين أيوب بآثارها السيئة على الناس فمنعها وحرم زراعتها فى البستان الكافورى ، وذات يوم دخل البستان فرأى فيه منها شيئا كثيرا فأمر ، بأن يحرق، فتأسف لذلك الحادث مدمنوها وعبر أحد الشعراء عن لسان حالهم بقوله :

أسفاً لدهرٍ غالها ولربَّما ظلَّ الكريمُ بذلَّةِ المأسُورِ

جمعتْ له الأشهاد كرماً أخضرا كعروسةٍ تُجلى بخضرِ حريرِ

زفُّوا لها تاراً فخلنا جنَّةً برزتْ لنا قد زوّجتْ بالنُّورِ

لم اكتَستْ منها غلالةَ صفرةٍ فى حَضرةٍ مقرونةٍ بزفيرِ

فكأنَّها لهبُ اللَّظى فى خُضْرةٍ منها وطرفُ رمادها المنثورِ

جارى النُّضارُ على مذابِ زُمرُّدٍ تركا فتيت المسك فى الكافورى

لله درُّك حيَّةً أو ميتةً من منظرٍ بهجٍ بغيرِ نظيرِ

أُوتيتِ غيرَ ذميمةٍ فسقى الحيا تربـاً تضمَّن منك نوبَ عبيرِ

عندى لذكرِك مابقيتُ مخلداً سحُّ الدموعِ ونفثةُ المصدورِ(٢)

مظاهر الزهد والتصوف

من المظاهر الاجتماعية ذات الدلالات النفسية فى تصوير الشخصية المصرية انتشار الحركة الصوفية فى مصر، وقد شغلت هذه الظاهرة جانبا غير قليل فى الأدب المصرى شعره ونثره، وأصبح الأدب الصوفى غرضا متميزا عن غيره من أغراض الشعر والنثر ولاسيما فى القرنين السادس والسابع للهجرة ، حيث أسهم كبار رجال الصوفية المصريين بإنتاجهم الأدبى

(١) المرجع السابق ص ١٠٩ ، ١١١ .

(٢) المرجع السابق ص ١١٢ .

أمثال : ابن الكيزانى، وابن الفارض، وابن الصباغ القوصى، وإبراهيم الدسوقى. وابن عطاء الله السكندرى، وأبى الحسن الشاذلى وغيرهم.

وقد مرت الصوفية بأطوار مختلفة فى مصر، وعلاقة الحركة الصوفية كفكر أو تطبيق مع الشخصية المصرية محك للكشف عن بعض خصائصها ومميزاتها.

وفيما سبق أشرت إلى نشاط "سليم بن عتر التجيبى فى مصر وماكان يقوم به فى مسجد الفسطاط، من قصص ومواعظ وإرشادات، إبان القرن الأول الهجرى.

وكانت هذه النشأة الصوفية فى مصر مماثلة لنشأتها فى بقية الأمصار الإسلامية فقد عرفت الكوفة والبصرة لونا من هذا التصوف فى تلك الفترة تمثل فى تلك المواعظ وهاتيك الحكايات التى كانت تلقى فى مساجد الأمصار الجامعة بقصد التخفيف من غلواء النزعة المادية التى أخذت تغزو المجتمع العربى الإسلامى وقتذاك.

ولكن هذه الفكرة الصوفية البسيطة المحببة إلى نفوس المصريين بدأت تأخذ شكلا آخر فى أوائل القرن الثالث الهجرى حينما أخذت الصوفية تحدد لها فكرا خاصا حيال سلوك الإنسان الظاهرى والباطنى تجاه الدنيا ونحو الله، وتجلت هذه النزعة فيما رواه أبو الفيض ذو النون المصرى فهو يناجى الله قائلا : "لئن مددت يدى إليك داعيا لطالما كفيتنى ساهيا... أقطع منك رجاى بما عملت يداى حسبى من سؤالى علمك بحالى".

ويروى للناس قصصا يذكر فيها "المقامات" و "الأحوال"(١). وقد وضح الدكتور محمد كامل حسين اختلاف الدارسين حول مصدر آراء ذى النون، فمن قائل إنه أخذها عن أستاذه شقران العابد، وقيل عن فاطمة النيسابورية، وقيل عن رهبان الأديرة فى مصر الذين لقنوه شيئا من تعاليم الأفلاطونية الحديثة، ومهما يكن من أمر هذه الاختلافات حول أصول فلسفة ذى النون الصوفية. فإننا نراه يتجه فى صوفيته إلى لون جديد لم نعهده فى صوفية مصر من قبل، ظهر فيما اصطلح على تسميته (الحب الإلهى) فلا غرابة أن نرى المسلمين بمصر لايقبلون منه هذا الرأى الدينى الجديد ورموه بالزندقة وحمل فى محنة خلق القرآن إلى الخليفة المتوكل العباسى، ولذلك نرى أن أكثر الذين أخذوا بآراء ذى النون الصوفية ودعوا إلى مذهبه لم يكونوا

---

(١) الأدب الصوفى مصر ، د . على صافى حسين ، ص ١٥١ .

من أهل مصر، بل لم يكن له أثر يذكر فى مصر، فنحن لانجد فى عصره ولا فى العصر الذى يليه مباشرة من قال فى مصر مقالته أو اتخذ طريقته بل عاد صوفية مصر إلى الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإلى الزهد، واستمر الحال على ذلك حتى القرن الرابع للهجرة"(١). وقبول المصريين للتصوف بهذا المعنى أمر يتفق وخصائص الشخصية المصرية التى كونتها عوامل البيئة الجغرافية، وصقلتها التيارات الحضارية المختلفة، فصحراء مصر ووديها المنبسط واعتدال مناخها وصفاء جوها عوامل ساعدت على تكوين شخصية صافية النفس. وصفاء النفس أول درجة فى سلم الصعود إلى التصوف وشرط أساسى لتقبله.

ولم يكن نظام التعبد بالخلوة أو الانقطاع عن الناس أمرا غريبا عن المصريين فلقد ابتدعت مصر الرهبنة وعلمتها أمما كثيرة غيرها.

وكان رفض المصريين قبول الأفكار الصوفية ذات الصبغة الفلسفية أمرا مقبولا أيضا فى تلك الفترة إذ لم تكن النفوس قد تهيأت بعد لقبول هذه الأفكار. وبهذا تحددت معالم الصوفية فى مصر إبان القرن الثالث للهجرة، وهى لون من ألوان الورع والزهد والحض على التقرب إلى الله تعالى بالعبادة، ففكرة التصوف الفسلفى لم تكن معروفة فى مصر قبل العصر الفاطمى.

وفى القرن الرابع الهجرى أخذت الصوفية فى مصر مظهرا جديدا عندما استغل دعاة الشيعة استعداد المصريين لتقبل المبادىء الصوفية فى صورها المبسطة وراحوا يبثون دعواهم من خلال هذا الاستعداد، فكان الدعاة الشيعيون يظهرون الزهد والورع لجذب من لم يعتنق الدعوة، فكأن الدعاة للإسماعيلية لم يختلفوا فى مظهرهم عن الصوفية الذين عرفتهم مصر من قبل، وكان الدعاة يأمرون العامة بالتمسك بالعبادة العملية التى تعرف عند الإسماعيلية "بالعلم الظاهر" وينشرون بين الخاصة العبادة التى سموها "علم الباطن" أو التأويل"، وهنا اقتربت بعض آراء المتصوفة من آراء الإسماعيلية(٢).

واهتمت السلطات الحاكمة بالصوفيين، فأخذت تشجعهم ، وتقيم لهم نوعا من لتنظيم.

---

(١) ، (٢) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، د . محمد كامل حسين ، ص ٥٣ .

فالخليفة الآمر الفاطمى جدد قصر القرافة وعمل تحته مصطبة للصوفية فكان يجلس فى الطابق بأعلى القصر، ويرقص "أهل الطريقة من الصوفية والمجامر بالألوية موضوعة بين أيديهم والشموع الكثيرة تزهر وقد بُسط تحتهم حصر من فوقها بسط، ومدت لهم الأسمطة التى عليها كل لذيذ وشهى من الأطعمة والحلوى ، وكان بين الحاضرين الشيخ أبوعبد الله بن الجوهرى الواعظ وعليه مزق مرقعة على العادة خرقا ، وسأله الشيخ أبوإسحق إبراهيم المعروف بالقارح المقرى خرقة منها ووضعها على رأسه (١) .

ويصور الأمير تميم بن المعز حالة الصوفيين الفقراء، وقد اتخذوا من القرافة مأوى وسكنا، فأصبحت القرافة بحلولهم فيها عامرة بالطهر والعفاف، نسيمها الطيب يحيى النفوس، وشمسها بهيجة مشرقة، وسكانها : مابين مؤذن بالليل، وذاكر ربه خاشعا ومبتهل إلى الله بطول الدعاء :

إذا كنْـــتَ مصطـفياً مرْبعـــاً ... فخـــصَّ "القرافَـــة" بالاصْطِفَـاءِ
منـــــازلُ معـــــمورةٌ بالعـــفا ... فِ مخصوصـــةٌ بالتُّـقى والـــبهاءِ
كـــأنَّ العـــبيرَ لـــها تُربـــةٌ ... تضـــوَّع فـــى صُبْحِـها والمســاءِ
ويُحيـــى النـــفوسَ بأرجائـــهن ... رقـــيقُ النَّسيـــمِ وطيـــبُ الهـــواءِ
ديـــــارٌ أديـــرَ بهـــنَّ النعُيـــمُ ... ومغْـــنى كملتـــذِّ رجـــعِ الغـــناءِ
تزيـــدُ الشُّـــمُوسُ بهـــا بهجـــةً ... وتحـــسنُ فـــى مقْلَتـــى كـــلَّ راءِ
وينْـــبِهِ فيـــها النِّيام الأذانُ ... إذا مـــزَّق الـــلَّيلَ ســـيفُ الضـــياءِ
فمـــن ذاكـــرٍ ربـــَّه خشـــيةً ... ومـــن مستـــهلٍ بـــطولِ الدُّعـــاءِ(٢)

ولاشك أنّ بعض هذا السلوك الصوفى صادف هوى فى الشخصية المصرية ، فحلقات الذكر والرقص والإنشاد والطرب والطعام والشراب، والإسراف فى المظاهر أيا كانت مظاهر ثراء أو فقر حببت الصوفية إلى نفوس المصريين، ومن ثم فإن إقبال المصريين على التصوف

(١) المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٢) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى ، ص ٢٧ .

العملى كان بدافع حسى أو عاطفى وجدانى أكثر منه اندفاعا بسبب متصل بالفكر أو العقيدة أو الفلسفة.

وفى العصر الأيوبى أخذت الحركة الصوفية فى مصر مظهرين :

١ – مظهرا اجتماعيا يتمثل فى التنظيمات الرسمية والشعبية للصوفية.

٢ – مظهر فكريا يتمثل فى انتشار بعض الأفكار والمبادىء بأسلوب خاص فى الأدب العربى شعره ونثره. ففى سنة ٥٦٩ هـ وقف صلاح الدين الأيوبى دار سعيد السعداء للفقراء المتصوفين القادمين من البلاد المختلفة وولى عليهم شيخا كما وقف عليهم بستان الحبانية (بجوار بركة الفيل) وقيسارية الشراب بالقاهرة وناحية دهمور من البهنساوية، وشرط أن من مات من الصوفية وترك عشرين ديناراً فمات دونها كانت للفقراء ولايتعرض لها الديوان السلطانى، ومن أراد منهم السفر يعطى تسفيره، ورتب لهم فى كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً وبنى لهم حماماً بجوارهم (١) .

فكانت دار سعيد السعداء (٢) أول خانقاه أقيمت للصوفية فى عهد الأيوبيين، ثم توالت بعد ذلك الخوانق فى مصر حتى كثرت، واسترعى كثرتها انتباه "ابن بطوطة" فقال : "بمصر

---

(١) دراسات فى الشعر فى عهد الأيوبيين د . محمد كامل حسين ص ٦٤ .

(٢) الخانقاه والرباط والزاوية وجمعها خوانق ورباطات وزوايا معاهد دينية إسلامية للرجال والنساء وهى كالأديرة فى المسيحية ويطلق الرباط أحياناً على الدير المسيحى كما يقال للراهب المسيحى رابط . غير أن تلك المعاهد الإسلامية لم تكن يوماً للرهبنة وإنما أنشئت لإيواء المنقطعين للعلم والزهاد والعبادة وكان غرض منشئيها والمتصدقين عليها فعل الخير واكتساب الثواب . لفظ الرباط والزاوية عربيان ، فأصل الرباط مكان إقامة الحامية المرابطة عند ثغور العدو كما أن الزاوية فى الأصل الركن من الدار أو المكان عامة (محيط المحيط) أما الخانقاة ففارسية ومعناها البيت وهى حديثة فى الإسلام وجعلت لتخلى الصوفية فيها للعبادة والتصوف وأول من أحدث الخوانق فى مصر السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وكانت الخانقاه التى أنشأها دارا تعرف أولا بدار سعيد السعداء نسبة إلى الأستاذ قنبر سعيد السعداء عتيق الخليفة المستنصر الفاطمى وكانت هذه الدار مقابل دار الوزارة فلما كانت وزارة العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك سكنها وفتح من دار الوزارة إليها سرداباً تحت الأرض ليمر فيه ثم سكنها الوزير شاور بن مجبر فى أيام وزارته ثم ابنه الكامل فلما ملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى مصر بعد موت الخليفة العاضد وغير مرسوم الدولة الفاطمية ووضع من قصر الخلافة وأسكن فيه أمراء دولته الأكراد عمل هذه الديار برسم الفقهاء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم فى سنة تسع وستين وخمسمائة . انظر السلوك ، جـ ١ : هامش ص ٦٢

يتنافسون فى بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم المعدمين وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف ولكل زاوية شيخ وحارس وترتيب أمورهم عجيب"(١).

ولا شك أن كثيرا من المصريين اتخذ طريق التصوف حتى ينعم بما كان ينعم به غيرهم من سكان الخوانق أى أنهم اتخذوا التصوف وسيلة للحياة الدنيا(٢).

ويرتبط بالمظهر الأول أهداف سياسية للدولة الأيوبية فقد أراد الأيوبيون اقتلاع جذور الفكر ، الشيعى من مصر بعد القضاء على حكمهم. ولما كانت الدعوة الشيعية الإسماعيلية قريبة فى بعض نواحيها من الفكر التصوفى الفلسفى، فقد فكر الأيوبيون فى مناهضة الفكر بالفكر وراحوا يستقدمون كبار رجال الصوفية من مختلف البلاد : فوفد على مصر عدد كبير من الصوفية الغرباء منهم : محيى الدين بن عربى، وأبو الحسن الشاذلى، والسيد أحمد البدوى فهؤلاء وأمثالهم من زعماء المتصوفة هم الذين دخلوا مصر حاملين آراء الصوفية التى لم تعرفها مصر من قبل وكان لهم أثر فى تطور التصوف بما جلبوه معهم من آراء جديدة(٣).

وقد يبدو غريبا أن تقبل مصر على هذا النمط من التصوف وهو التصوف الفكرى لأنه يناقض ماعرفت به الشخصية المصرية من البساطة والمرح والتمتع وهى الصفات التى حددت موقفها من التشيع، وموقفها من التصوف بمعناه البسيط (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) أو الانقطاع للعبادة أو الجانب العملى منه كاللجوء إلى الخوانق والانضمام إلى حلقات الرقص والإنشاد .

ولكن الدكتور محمد كامل حسين يحاول تفسير شيوع هذا النوع من التصوف الفكرى ويرده إلى الظروف التى أحاطت بنشاط "ابن الكيزانى" الشاعر الصوفى الذى ظهر فى أواخر العصر الفاطمى، وكان يؤمن بمذهب الحب الإلهى ويمزجه بالمواقف الوعظية كما يبدو فى قوله :

اصرفُوا عنّى طَبيبِى ودعُونى وحبيبِى
علّلُوا قلبى بذكْرَاه فَقَدْ زادَ لهيبِى

(١) ، (٢) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، د . محمد كامل حسين ٥ ص ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٦٦ .

طـــابَ فتْـــكى فـــى هـــواهُ بـــيـــن واشٍ ورقيـــبِ
لا أُبالـــى بفـــواتِ النَّفـــسِ مـــا دامَ نصيـــبى
ليـــس مـــنْ لامَ وإنْ أطْنَـــبَ فـــيهِ بمـــصيب
جـــسدى راضٍ بسـقمـــى وجفُونـــى بنحيـــبى (١)

وقد كان لطريقة "الكيزانى" أثر فى نفوس المصريين، فقد أقبلوا عليها ليشغلوا الفراغ النفسى الذى تركه الدعاة الإسماعيليون. ولما وجد المصريون أنفسهم بعد انقراض الدولة الفاطمية قد حرموا مما يغذى عاطفتهم الدينية فى أية صورة كانت ، اتجهوا للتصوف وأحلوه فى نفوسهم وحياتهم محل ماكان يسمعونه من الدعاة الإسماعيليين. وذلك للتقارب الشديد بين آراء الصوفية وآراء الإسماعيلية، فالدعاة الفاطميون يتخذون من العقل طريقة للوصول إلى المعرفة وإلى الله ، والمتصوفة يريدون أن يصلوا بالمزيد الى المعرفة وإلى الله عن طريق الذوق والرياضة.

والحياة المصرية فى ذلك العصر كانت تدعو إلى شىء من الاستسلام للمقادير والاتجاه إلى الله، والزهد فى الدنيا، فالحروب الصليبية، والفتن الداخلية جعلت المصريين يتطلعون إلى لون من ألوان الحياة الروحية عساها تخفف عنهم هذه الآلام التى حاقت بهم من كل جانب. وكان المصريون فى العصر الفاطمى يهرعون إلى الدعاة ويستغيثون بالأئمة اعتقاداً منهم بأن الأئمة ملاذ كل مستغيث، وكانت العقيدة الإسماعيلية تأمرهم بذلك ، وفى العصر الأيوبى لم يجد المصريون هذا الملاذ فاتجهوا إلى شيوخ الطرق الصوفية (٢) .

وقد ظهرت فى الأدب المصرى أفكار جديدة رددها الصوفيون فى قصائدهم ورسائلهم المتبادلة فيما بينهم، ومواقف الرعظ والتذكير، والأوراد التى يتعبدون بها واقترنت هذه الأفكار بأسلوب خاص. ولست هنا بصدد دراسة الفكر الصوفى فى الأدب المصرى، وإنما أكتفى بالإشارة إلى بعض هذه الأفكار التى سادت فى تلك الحقبة كمظهر من مظاهر الشخصية الاجتماعية بعد أن درست علاقة هذه الشخصية بتطور المفهوم الصوفى وممارسته سلوكا

(١) الخريدة ، جـ ٢ ، ص ٢٠ .

(٢) دراسات فى الشعر عصر الأيوبيين ، د . محمد كامل حسين ، ص ٦٥ .

وتطبيقا.

ومن أهم هذه الأفكار "فكرة الحب الإلهى" التى رددها كثير من الصوفيين فى ذلك العصر من أمثال ابن الفارض فى قوله :

نسخْتُ بحبى آيةَ العشقِ مـن قبلـى ... فأهلُ الهوى جندى وحكمِى على الكلّ

وكلُّ فتى يهـوى فإنـّـى إمامـُه ... وإنى برىءٌ من فتى سامِـع العذلِ(١)

وإبراهيم الدسوقى فى قوله :

سَقانـى محبُوبِـى بكـأسِ المحبـةِ ... فتهتُ عن العـشّاقِ سكـراً بخلْوتَـى

ولاحَ لنَـا نـورُ الجـلالَـة لـوْ أضـاء ... لـصمّ الجـبالِ الراسيـاتِ لُدكّـتِ

وكنْت أنا الساقِى لمنْ كـانَ حاضـرا ... أطـوفُ عليـهم كـرّةً بعْـد كـرّةِ

ونادمنـــى سراً بسـرٍ وحكمـةً ... وأنّ رسولَ اللهِ شيخِى وقُـدْوتـى(٢)

وفكرة "النور المحمدى" القائمة على أساس أن محمدا نشأ قبل آدم وأن سره وجد قبل خلق الكون فكان النور المحمدى الذى شهده الأنبياء السابقون جميعهم، فسره تنقل من طور إلى طور حتى ظهر فى هذا القطب شيخ الوقت. ويعبر إبراهيم الدسوقى عن هذه الفكرة بقوله :

نَعْم نشْأتى فى الحب مـن قِبل آدم ... وسرى فى الأكوانِ مْن قـبلِ نشْأتـى

أنا كُنْتُ فى العلّياءِ مع نـورِ أحـمد ... على الدرّة البيضاءِ فـى خُـلْوِيَّتِى

أنا كُنتُ فى رؤيـا النبيـعِ فـداءه ... بلطـفِ عنايـاتٍ وعيـنِ حقيقـةِ

أنا كُنتُ معْ إدريس لمّـا أتـى العُـلا ... وأُسْكِن فى الفردوسِ أنعـمَ بُقْعـةِ

أنا كنْت معْ عيسى على المهْد ناطِـقاً ... وأعْطيـتُ داودا حـلاوةَ نغـمةِ

أنا كُنْتُ مع نوح بما شهـدَ الـورَى ... بحاراً وطوفاناً علـى كـفّ قـدرةِ

أنا القطبُ شيخُ الوقتِ فى كلّ حـالةٍ ... أنا العبدُ إبراهيمُ شـيخُ الطريقةِ(٣)

(١) ديوان ابن الفارض ، ص ٩١ ، القاهرة مطبعة الهيئة (مؤسسة المطبوعات المصرية) ، ١٣٥٣ هـ .
(٢) ، (٣) دراسات فى عصر الأيوبيين د . محمد كامل حسين ، ٧٥ ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

ومنها فكرة "العلم بالباطن" وكان ابن العربى يقول بأن العلم الشرعى يوحى به إلى الرسول (ص) على لسان الملك أما العلم بالباطن عند الولى فهو إرث يرثه الولى من خاتم الأولياء الذى يرثه بدوره عن منبع الفيض الروحى جميعه أى الحقيقة المحمدية، ويقول أبو السعود بن أبى العشائر الصوفى المصرى المتوفى سنة ٦٤٤ هـ "الطلب شغل الظاهر والمطلوب شغل الباطن ولا يستقيم ظاهر إلا ببباطن ولايسلم باطن الا بظاهر" ونظم ابن الفارض هذه الآراء فى قوله :

فخذْ علمَ أعلام الصِّفاتِ بظاهرِ المعالمِ فى نفسٍ بذاك عليمةٌ

وفهمِ أساميى الذَّاتَ عنها بباطنِ العوالمِ مَن روحٍ بذاك مشيرةٌ(١)

ومنها فكرة :"الفناء والاتحاد بالذات الإلهية" التى يعبر عنها أحد شعرائهم :

وها أنا أبْدى فى اتّحادى مبْدئى وأنهى انْتهائى فى تواضعِ رفْعتى

جلَت فى تجلّيها الوجودَ لناظرى ففى كلّ مرْئىٍ أراها برُؤْيتى (٢)

ومنها فكرة "وحدة الوجود" التى عبر عنها ابن الصباغ فى كلام منثور أورده على سبيل الوعظ والإرشاد أو التوجيه والتعليم، قال : إذا تخلص العبد إلى مقام المعرفة أوحى إليه بخاطره، وحرس بسره أن يسبح فيه غير خاطر الحق وشاهد القدم، فهو إذن للحق جميع معانيه وصار الحق مواجهه، فهو كل منظور إليه ومقابله على الظاهر(٣).

تسَرْبَلَ وقتى فيك فهو مُسَرْبَلُ وأفنيتنى عنّى فعدتُ مجدداً

وكلٌّ بكلّ الكلّ وصلٌ محققٌ حقائقُ حقٌ فى دوامٍ تَخلُّدا

تفرّدُ أمرى فانفردْتُ بقربتى فصرتُ غريباً فى البريّة أوحدا(٤)

وكما حمل لنا الأدب الصوفى بعض الأفكار التى كانوا يعتقدونها فإنه قدم لنا وصفا

---

(١) ،(٢) دراسات فى الشعر فى العصر الأيوبى، د. محمد كامل حسين، ص ٧٢، ص ٨١.

(٣)، (٤) الأدب الصوفى فى مصر، د. على صافى حسين، ص ٩٨.

لبعض المناصب التى تنخرط فى سلك التنظيم الصوفى، من ذلك وصف أحوال (المريد) كما عبر عنه ابن الصباغ بقوله : "إذا تخلص العبد إلى مقام المعرفة أوحى إليه بخاطره وحرس سره أن يسبح فيه غير خاطر الحق وشاهد القدم فهو إذا منفرد للحق فى جميع معانيه وصار الحق مواجهه فهو كل منظور إليه ومقابله على الظاهر، ومن أسكرته نار التوحيد حجبته عن عبارة التجريد، ومن أسكرته أنوار التجريد نظر عن حقائق التوحيد وحياء الموحدين من مولاهم أزال عن قلوبهم سرور المنة وحياء الأولياء من لحظ عظمة ربهم أزال عن قلوبهم سرور الطاعة"(١).

(١) الأدب الصوفى فى مصر ، د . على صافى حسين ، ص ١٨٦ .

obeikandl.com